الرواية الفائزة بجائزة مهرجان "الأدب البوليسي" في الارجنتين عام 2013

ماريانو كيروس

جثة في قرية تائهة

ترجمة: عبد السلام باشا

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

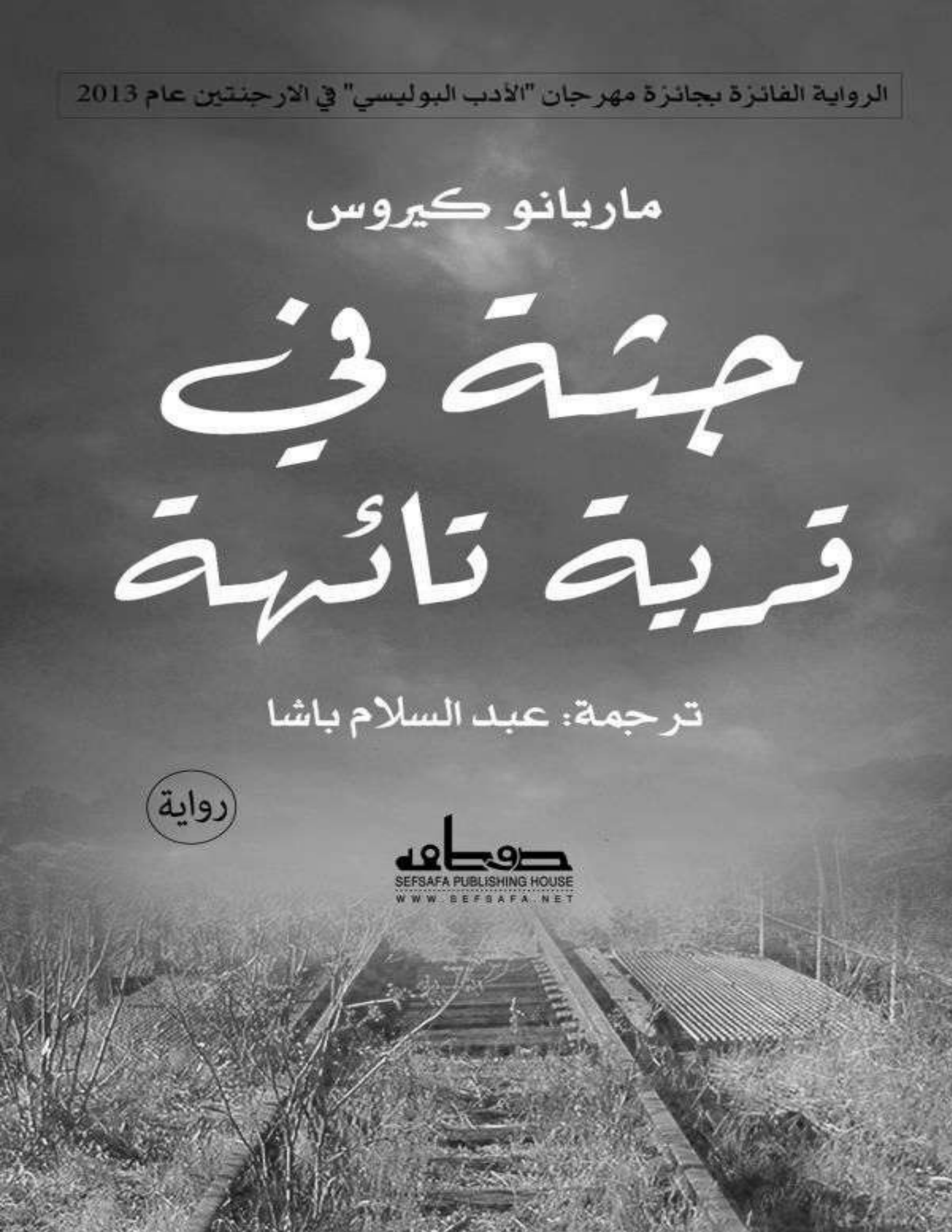

ماريانو كيروس

جثة في قرية تائهة

ترجمة

عبد السلام باشا

Obra editada en el marco del Programa “Sur” de Apoyo a las Traducciones del Ministerio de Relaciones Exteriores y Culto de la República Argentina.

هذا العمل نُشر ضمن برنامج "SUR" لدعم الترجمة الذي تقدمه وزارة الخارجية والشؤون الدينية الأرجنتينية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عبدالسلام باشا/ مترجم وصحفي مصري، له العديد من الترجمات عن الإسبانية. أهمها " السيرة الذاتية" و"حكايات" لخورخى لويس بورخيس، ورواية "المهرطق" لميجيل ديليبس، ورواية "ليل تشيلي" لروبرتو بولانيو، ورواية "الطريق إلى إيدا" للكاتب الأرجنتيني ريكاردو بيجليا.

.....

جثة في قرية تائهة
الطبعة الأولى 2016
رقم الإيـــداع: 2016/14241
الترقيم الدولي: 978-977-5154-82-8
جميع الحقوق محفوظة ©
عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاث ج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means, electronic or mechanical including photocopying, recording or by any information storage and retrieval system, without prior permission in writing of the publishers.

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

No llores, hombre duro © Eduvim, Villa Maria, 2013

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

المحتويات

جثة في قرية تائهة
إلى نوا
شكر
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20

21
خاتمة

جثة في قرية تائهة

إلى نوا

شكر

إلى كارلوس فرياس، شكرًا على البوليبروبيلين.
بابلو بلاك؛ ميجل أنخيل مولفينو؛ تشكي فيجيرا؛ لوثيانو أكوستا؛ أورلاندو فان باراديم.

1

كما يُقال عن أهل الإسكيمو: هم فقط، من وُلدوا في البرد، يمكنهم أن يعيشوا في البرد بدون أن يصابوا بالجنون."هنا يحدث نفس الشيء، لكن بالعكس"، فكَّر إيميليو ريينا بينما يمسح عرق عنقه بيده. هنا، في ((لاجونا فريا))، قرية تائهة في وسط سهل تشاكو.

ريينا موجود في القرية منذ ثلاثة أشهر، بلا مشاغل كثيرة باستثناء التصوير وتدريس ورشة أدبية غريبة، وعلى الأخص مُرتجلة. أكثر ما ضايقه هو نقص الماء. عانى كثيرًا حتى أدرك كيف يمكن للمرء أن يدبر أحواله بسرعة.

لم يعرف أشخاصًا كثيرين في هذه الأشهر الثلاثة. قبل أي شيء؛ لوجود القليل من الأشخاص الذين يمكن معرفتهم. رحل معظمهم، بحثًا عن عمل، بحثًا عن مناخ أفضل، بحثًا عن أي شيء. لهذا يبدو أن القرية خاوية. الأبنية القليلة تبدو مهجورة كأنما قضى طاعون على الناس، تاركًا القرية هكذا، شبه خاوية.

بالفعل، كما يقول أهل الإسكيمو، فكَّر ريينا بينما يقوم بتصوير جثة: أي شخص سيصاب بالجنون هنا.

* * *

فلنبقَ مع ريينا، في نهاية الأمر، هو سيكون بطلنا: في الصباح الباكر عثروا على الجثة التي يقوم بتصويرها، ملقاة على جانب الطريق. بنديني، مأمور الشرطة في ((لاجونا فريا))، جعل ريينا يأتي. كانوا قد أصبحوا بدون كاميرا في قسم الشرطة، ولا بد لشخصٍ ما أن يمد لهم يد العون.

منذ زمن طويل لا يمر أي قطار بالقرية، وهكذا تبدو القضبان مهجورة، مغطاة في بعض أجزائها بالأعشاب البرية الهشة. والجثة تزيد المكان وحشة.

ثلاثة صبية هم الذين اكتشفوا الجثة بينما كانوا يسيرون في ذلك المكان. الصبية دائمًا، فكَّر ريينا، يتدخلون فيما لا يعنيهم. وأيضًا كان الصبية أول من عبث بالجثة. لمسوها بفرع شجرة – في الوجه والبطن– حتى تشجَّع أحدهم ولمسها بإصبعه. بعد ذلك تشجَّع آخر وبعد ذلك الآخر. عندما وصل أول

شخص بالغ – كارانثا، الحمَّال– كانت التلاعب بالجثة قد بلغ مداه. وكاراثنا أيضا شارك في هذا: في لفتة مسيحية قام بإغلاق عينيها. بعد ذلك أرسل أحد الصبية لإبلاغ الشرطة.

بعد نصف ساعة وصل بنديني وضابطان آخران، بانفعال وفضول كبيرين مثل الصبية. أوقفوا عربة الدورية على مسافة آمنة من قضبان القطار وهبطوا بينما يتبادلون النكات. أتى الحمال بإشارة لكي يسرعوا.

– اهدأ قليلًا – ردَّ عليه أحد الضباط –، فلن تذهب الجثة لأي مكان.

تردَّد كارانثا لبرهة، حتى قرر الردَّ على المزحة بابتسامة متوترة. كانت جبهته تفرز العرق واستخدم كُمَّ قميصه ليجففها. كان كارانثا رجلًا مسنًّا ولا يريد الدخول في مشاكل. وأدرك في تلك اللحظة أنه لا يحب رجال الشرطة.

عندما وصل ريينا إلى المكان كان رجال الشرطة يبدءون ما يشبه الاستجواب. باستثناء الحمَّال، كان الجميع – الصبية ورجال الشرطة– يضحكون على شيء ما، لكن ريينا لم يعرف ما يُضحكهم؛ لأنهم صمتوا عندما رأوه يقترب.

– لحسن الحظ أتيتِ يا ملكتي[1]. – قال له الضابط بنديني–، لقد تعطلت كاميرتنا وهكذا لا يمكننا التصوير.

لم يرد ريينا. فكَّر أن هذا ما كان ينقصه: أن يسدي معروفًا للشرطة.

هجم عليه بنديني وأمسك بذراعه وقاده حتى الجثة.

– وبالمرة انظُرْ إن كنت تعرفها– قال له– ولم يعرف ريينا إن كان الأمر مزحة، أم أنه كان اقتراحًا جادًّا.

بالطبع، كانت الجثة لامرأة. كانت مُمدَّدة على جانبها، الجذع عارٍ؛ الساقان ملتفّتان في وضع جنيني، وكانتا عاريتين أيضًا. قطعتا الملابس الوحيدتان اللتان تغطيانها كانتا لباسًا وجوربًا. جورب ذكوري، فكَّر ريينا. بسبب التراب، وبسبب بعض بقع الدم التي تختلط بالنسيج، لم يكن ممكنًا تمييز لون اللباس. "رغم أن هذا ليس مُهمًّا الآن"، قال لنفسه بينما يسمع تعليمات الضابط بنديني:

– أينما ترى كدمات، قم بالتصوير بدون تردد – قال له– اليدان، صَوِّر

اليدين عن قَرب.

ــ فليستخدم الزووم، قال رجل شرطة آخر اسمه لايبا.

رجل الشرطة الثالث اسمه جونثاجا، أصغر الثلاثة سنًّا، والشيء الوحيد الذي يقوم به هو الضحك. يبدو أبله.

قبل الضغطة الأولى، عاد ريينا للنظر إلى الجثة: كان الوجه مشوهًا للغاية، من الواضح أن شخصًا ما تمتَّع بينما يقوم بتشويه هذا الجزء؛ أحد ثدييها كان يحمل علامات، كأنها خدوش، ونطاق كبير بلون بنفسجي فوق أضلاع الجانب الأيمن. يمتد النطاق حتى الردف وهناك يختلط بوشم. وشم رديء للغاية، قدَّر ريينا. الساقان كانتا موحلتين، على الأخص في الركبتين. بالنظر لها من الجانب، تبدو الجثة كأحد المريخيين المزيفين الذين يظهرون في المجلات.

ــ إيه، الملكة وقعت في الغرام ــ قال لايبا ــ وضحك الجميع.

ليس الجميع في الحقيقة؛ لأن ريينا والحمَّال ظلا جادَّين. ريينا مصورًا الجثة بكاميرته والحمَّال بنظرة تائهة، مُضيقًا عينيه بسبب الشمس.

1- اسم الشخصية هو Reyna وله ذات نطق كلمة Reina التي تعني: ملكة. والإشارة سخرية من الشخصية.

2

كما قُلنا من قبل، وصل إيميليو ريينا إلى ((لاجونا فريا))قبل ثلاثة أشهر. أرسلته الصحيفة لكي يغطي اختفاء عضوين (رجل وامرأة) من منظمة V المُهتمة بحماية البيئة. كانت ((لاجونا فريا)) هي آخر مكان حضري ظهرَا به. بعد ذلك، كما يُقال، انشقت الأرض وابتلعتهما. بالطبع، لم يكن ريينا مهتمًّا بما حدث لهذين الشخصين. وإن لم يكن بسببه، بسبب ريينا، لم نكن نحن أيضًا سنهتم بهما.

الحقيقة أن ريينا ليس شخصًا يمكننا أن نَصفه بأنه مُبتهج. لم يكد يتجاوز الثلاثين ويشعر أنه رجل عجوز، شخص لم يفعل الكثير ولم يُحقِّق أي شيء. لم تتغير الأمور في ((لاجونا فريا))، بحد أقصى أمكنه أن يبتهج لمعرفته بسارة (رغم أن ((البهجة))، ما يُعرف بـ ((البهجة))، تبدو مبالغة).

من هي سارة؟ حسنًا، سارة كانت أول امرأة لا تضحك ولا تغضب (بعد بضعة قُبَل ومداعبات) عندما سقط ريينا وانزوى جانبًا، مُتعللًا بأنه ثمل. لكنه لم يكن ثملًا، وإنما كان مُكتئبًا للغاية.

خطيبته – في الحقيقة زوجته، لأنهما عاشا تحت ذات السقف خلال سنوات عديدة– ضجرت بسبب هذا تحديدًا، بسبب الاكتئاب والطاقة المحدودة لريينا. اسمها أولجا.

– أنا امرأة جامحة– قالت له وسط أحد النقاشات.

– أنت عاهرة– لم يُجِب سوى بهذا.

وحينئذ انتهى كل شيء، رحلت أولجا. وشعر ريينا بالفزع.

بدأ في مهاتفتها طوال الوقت (على الأخص في الفجر)، ملأ هاتفها المحمول والبريد الإلكتروني بالرسائل، ومن أجلها كَتَبَ بضع قصائد (كان ريينا متيقنًا من أنه شاعر جيد)، وذهب لانتظارها أمام العمل، طوال أسبوع كامل. لم يتلقَّ إجابة مُطلقًا. كان يفكِّر كل مرة أنه يجب أن يثمل، أن يعبر عن انهياره بشكل درامي. إن لم يقم بهذا في النهاية فلأنه قرأ خبرًا في الإنترنت: الكحول، يقول الخبر، يُضعف القدرة الجنسية.

فلنخصص بضعة سطور لأولجا: يمكننا أن نقول إنها امرأة جذابة – وجه جميل، عينان لوزيتان، نهدان ناهضان، ومؤخرة جيدة–، امرأة واثقة في نفسها أكثر من كونها جامحة، وهما صفتان يمكن الخلط بينهما بسهولة كبيرة. المشكلة، على أية حال، كانت لدى رييِنا. إن كان الجنس مع أولجا معاناة، ببساطة يمكن أن يكون مأساة مع أي امرأة أخرى. بدون أولجا، فقد انتهت النساء، فكَّر. كان يلوم نفسه، بين أمور أخرى، على أنه لم ينجب منها طفلًا.

عندما عرف بعد بضعة شهور أنها على علاقة بشخص آخر، أدرك رييِنا أنه يجب أن يحصل على امرأة بشكل عاجل، وإلا ستصبح مأساته كاملة.

خرج مع العديد من النساء، معظمهن فتيات سيئات الحظ، فتيات يعشن حياة ضائعة، وكما كن يقلن، فقط يبحثن عن المتعة. حمل اثنتين إلى الفراش. عندما رأت الأولى أن الأمور لا تسير بشكل جيد، اعتذرت وقالت إنها غير مستعدة لتحمل مشاكل شخص آخر؛ التالية حاولت الخروج من الموقف المُحرج بمزحة، لكن شيئًا ما – نبرة الصوت، امتعاض– خانها وبدت المزحة كسخرية. صفعها رييِنا ورحلت الفتاة بينما تقول إنها لن تبلغ عنه الشرطة لمجرد الشفقة. وأيضًا قالت له إنه حقير مكبوت.

ظل رييِنا بمفرده، جالسًا على حافة الفراش.

بعد بضعة أيام حدَّثه شخص ما في الجريدة عن ((لاجونا فريا)) وعن منظمة VIDAS.

– يجب الإقامة هناك لمدة أسبوع بحد أقصى– قدَّروا هذا.

طلب رييِنا – تقريبًا توسل– أن يتولى الأمر. سافر في اليوم التالي مُفكرًا أن أسبوعًا بعيدًا عن مدينة ((ريثيدينثيا)) سيُحسن من أحواله.

* * *

التقى بسارة بعد يومين من وصوله إلى ((لاجونا فريا)). أرتيميو إيبانيث، العمدة، دعاه إلى ((ثيركيتو))، كاباريه القرية، لكي يرتاح رييِنا، لكي ينسى لبرهة منظمة VIDAS وعضويها المختفيين. لكن رييِنا لم يكن يحب الكباريهات، لم يكن يشعر بالراحة مع نساء أكثر خبرة منه.

ـ أنا مُرهق ـ كانت الحجة الوحيدة التي خطرت على باله، عذر تافه لا يستطيع كبح حماس إيبانيث.

ـ لا تكن أبله واذهبْ مع الفتيان ـ قال له العمدة ودفعه داخل سيارة ستروين سي 3 التي كان يقودها بيبو، ابنه، برفقة شخصين آخرين.

كانت السيارة تفوح برائحة كريهة للعرق وسجائر الماريجوانا. رغم أن الوقت كان ليلًا، كان بيبو وصديقاه يرتدون نظارات شمس، لكن على العكس من صديقيه، لم يكن بيبو ثملًا. جلس ريينا مزنوقًا في المقعد الخلفي.

ـ اسمع هذا ـ صاح بيبو مخاطبًا إياه، وقام بتشغيل الاستريو: امتلأت السيارة بالفلكلور. أغنية من نوع تشكاريرا. غناها بيبو صارخًا. الجالس في الخلف بجانب ريينا بدأ في الدق على سقف السيارة بيده، مُتبعًا إيقاع الموسيقى. قام ريينا بجهد لكي يبدي حماسًا وحرَّك رأسه على الإيقاع. لكن لا، هذه الموسيقى لم تكن تروقه.

كان ((ثيركيتو)) أكثر شبهًا بالعنبر من الكاباريه، كان كبيرًا، متهدم السقف. كان خارج القرية، بجانب الطريق، مكان لمتعة سائقي الشاحنات، زائرين، وأشخاص آخرين لديهم وقت فراغ.

لطريقتهم في الدخول ـ في طابور، بينما لا زالوا متحمسين تحت أثر أغنية تشكاريرا ـ، فكَّر ريينا في فيلم عن القتلة. قتلة ينتهي أمرهم بشكل سيء.

لم يكن هناك ما يمنح ((ثيركيتو)) صفة الكباريه سوى ضوء أحمر شاحب مُعلق فوق ما يمكن التخمين بأنه البار. بالإضافة إلى البار، كانت هناك عشر موائد تقريبًا، من البلاستيك، وموزعة بشكل سيئ، يجلس إليها رجال يبدون عدوانيين، غير ودودين. في النهاية كانت هناك بضع ستائر داكنة تقوم بدور ديكور المكان. وبعد ذلك اكتشف ريينا وجود العاهرات خلف الستائر، كأنهن ممثلات خلف ستائر مسرح. الموسيقى لم تعجب ريينا أيضًا، كانت موسيقى ((كومبيا)) مملة صوتها غير مضبوط.

ارتمى بيبو على مقعد وأرسل صديقيه ليأتيا ببيرة، لكن قبل أن يتحركا ظهرت فتاة ترتدي لباسًا وحمالة صدر وسألتهم ماذا يريدون أن يشربوا. بعد قليل بدأت فتيات أخرى في الظهور، وشعر ريينا بانطباع أن بعض الرجال

ظهروا أيضًا (رغم أن الرجال، كما أمكننا أن نرى عندما دخل ((ثيركيتو))، كانوا هناك قبل ذلك).

ريينا، الجالس على مقعد في مواجهة بيبو، ألقى نظرة متفحصة على الفتيات اللائي كن يأتين: معظمهن بوجوه هندية وأجساد مترهلة إلى حد كبير. لم يكن بينهن من يمكن أن تعجبه. لكن، حينئذ ظهرت سارة.

ليس لأن سارة تختلف كثيرًا عن بقية الفتيات في ((ثيركيتو))، لكن لأن ريينا شعر أنها هكذا (أو أراد أن يشعر أنها هكذا). بدون تبادل أي كلمات، جلست سارة على حجره وطلبت منه أن يدعوها إلى مشروب ((فيرنيه)).

ــ لكننا نشرب بيرة، وليس ((فيرنيه))ــ رد عليها ريينا، وفي البداية نظرت له غير مُصدقة، وبعد ذلك أطلقت قهقهة. الآخرون، بيبو وصديقاه، ضحكوا أيضًا.

ــ إنها معك. ادْعُها. ــ قال له بيبوــ.

ــ حسنًا ــ قال ريينا ــ، لكن سآتي لكِ ببيرة. وليس ((فيرنيه)).

ابتعدت سارة عن ريينا وقد شعرت أنها أساءت اختيار الحِجر. ظلت تنظر كيف يذهب إلى البار وتنتظر أن يأتي لها بها بينما تحرك أصابعها كأنما تعزف بيانو. لسبب ما، عندما رأته سارة يعود بالزجاجة في يد وبكوبين في اليد الأخرى، كأنما يحمل كأسين، وقع ريينا منها موقعًا حسنًا.

أفسحت سارة مكانًا لكي يجلس ريينا وبعد ذلك عادت للجلوس على حِجره. بالكاد رشفت مرتين من البيرة. وضعت كل جهدها في أرجحة ردفيها بنعومة على حِجر ريينا، الذي اعترف بعد برهة أن حركة سارة تعجبه، أن الأمر لا يتطلب سوى وقت قصير لكي يشعر بالاستثارة بالفعل. تحمَّس للاكتشاف وتشجع على الضغط بيديه على مؤخرتها. حينئذ، أسرعت من حركة ردفيها، بدون أن تفقد الحركة نعومتها. بعد ذلك دعته للدخول إلى إحدى الغرف.

ــ تعال معي إلى الخلفــ قالت له.

كانت الدعوة كافية لكي يفقد ريينا حماسه وفي المقابل يترك نفسه ينهزم أمام مزيج من الخوف والاضطراب.

ــ اذهب بالفتاة ــ قال له بيبوــ، إنها معك كما قلت لك.

في النهاية ذهب بها ريينا، لكن بدون رغبة حقيقية. عبرَا الستائر الداكنة ودخلا في غرفة، حجرة صغيرة تُشبه المقصورة. كان بها فراش، كومودينو عليه مصباح، ورائحة انغلاق.

استلقى ريينا على ظهره ورشق عينيه في السقف الصفيح. ملأ رأسه بصور جنسية، لكنه لم يوفق. حينئذ صدرت تلك العبارات اللطيفة والأعذار لأنه مرهق وثمل.

ناما ملتصقين أكثر من نصف ساعة، في وضع الملعقة – هي مُلتصقة بظهره– حتى أيقظتهما بعض الصرخات في الخارج.

– يجب أن أذهب، قال ريينا.

– كذب، أين يمكنك أن تذهب في هذه الساعة؟

– حقيقة، يجب أن أذهب.

– فلتذهب إذن، لكن عُد في الغد.

خرج ريينا بينما يفكر أنه لن يعود مُطلقًا إلى ثيركيتو، لكنه عاد هناك في الليلة التالية، مثل ليالٍ أخرى كثيرة في الأشهر الثلاثة الأخيرة. حتى وجد نفسه فجأة، ذات صباح، يقوم بتصوير جثة سارة بجانب شريط القطار.

3

بعد أن أخذ كل الصور التي طلبوها منه، قام أحد الضباط، جونثاجا، بنزع الكاميرا منه وقال له أن يأتي لأخذها بعد ساعة. رأى ريينا بحزن، وبدون أن يقول شيئًا، كيف يُعلِّق جونثاجا الكاميرا على كتفه وكيف يركب سيارة الدورية بدون الانتباه للحركة البندولية للكاميرا، التي تحتك بباب السيارة أثناء حركتها إلى الأمام وإلى الخلف.

الآن، بدون رجال الشرطة – الذين حملوا كاررانثا وجثة سارا وذهبوا–، ظل ريينا في المكان مع الصبية الثلاثة الذين عثروا على الجثة. سألهم عن أسمائهم.

– إيه – قال أحدهم–: ولماذا يجب أن نخبرك؟

– ماذا تفعل هنا؟ – سأل آخر.

إنهم صبية فقراء. ملابسهم متسخة للغاية ومُهملة، الأعين غائصة والوجوه مغطاة بالتراب. صبية فقراء وبغيضون. قال لهم ريينا إنه لا توجد مشاكل، إنه يريد أن يطرح عليهم بضعة أسئلة فقط.

– ولماذا يجب أن نقول لك أي شيء؟– ردَّوا عليه.

– هذا كان خطيب الميتة.

تأثر ريينا لأنهم وصفوه هكذا ((خطيب الميتة))، وتجمد في مكانه، غير قادر على النطق بكلمة واحدة.

– لهذا يريد أن يعرف– واصل الصبية، كأن ريينا غير موجود هناك.

– هل قتلوا فتاتك؟

بينما يتحدثون، كان الصبية يسيرون إلى الخلف، يَخْطون متراجعين.

– غوروا في داهية– قال ريينا في النهاية. قال هذا بصوت خفيض تقريبًا. بشكل خاص، يؤلمه أن الصبية كانوا يضحكون مع رجال الشرطة، بينما معه، على العكس، يبدون أفظاظًا. ((مثل بضعة بُلَهاء حُقَراء))، فكَّر.

ابتعد الصبية بدون أن يستديروا تمامًا، كأنما كانوا يراقبونه. ولم يفعل أي

شيء، ظل ساكنًا بينما ينظر كيف يبتعدون. حتى استداروا في النهاية وتركوا ريينا خلفهم. ما إن قاموا بهذا، حتى بدءوا سباقًا مصحوبًا بالصراخ. حينئذ يفكر ريينا، هؤلاء الصبية يبدون أطفالًا.

الآن يجلس مقرفصًا في ذات المكان الذي كانت توجد به جثة سارة. ظل هكذا لوقت طويل، ثلاث دقائق تقريبًا، حتى شعر بألم في ساقيه، وقعقعة عضلاته ومفاصله جعلته يشعر بالحاجة لتغيير وضعه. تحرَّك، وأصبح الصوت أعلى. حينئذ فكَّر ريينا: ((حالتي الجسدية، حياة الكسل)).

كما فكَّر أنه باعتباره شاعرًا جيدًا ستخطر على باله قصيدة لصديقته الميتة. لكن الطبيعة حوله بشعة، حَرٌّ كثير، لا توجد طريقة للتفكير في شيء جيد. يُفكِّر: ((ربما بعد ذلك، عندما أستوعب الأمر)).

يرسم مخططًا في المكان بقدمه اليمنى، ضاغطًا كعب الحذاء على الأرض. نظر إلى المخطط، لا يشبه شيئًا. أو بشكل أدق، يشبه أي شيء. يمحوه بكعب الحذاء الأيسر ويبدأ في السير باتجاه قسم الشرطة. كان يخشى أن يكسر الضباط كاميرته.

هل يمكنهم أن يسمعوا؟ إنها الببغاوات. صراخها يقطع صمت القيلولة. كانت تتجمع في قمم الأشجار، بدون أي نظام؛ طيور هيستيرية ورعناء. الضابط بنديني يجلس على مقعد بالعكس، حيث يواجه ظهر المقعد، محتميًا من الحر في بهو القسم، يرفع نظرته إلى الطيور ويرتسم التقزز على وجهه. عمل اليوم كان شاقًّا، ومشروب الماتيه الذي يتناوله الآن لا يزيل إرهاقه.

ــ لن يأتي النائب العام ــ قال لنفسه، أو لنا، نحن الذين كنا هناك، بجانبه، رغم أنه لم يكن يرغب في رؤيتنا.

كانت الجثة ممدَّدة ومُغطاة ببطانية في أحد الجوانب.

استغرق بنديني وقتًا طويلًا لكي يقرر، حتى أمر جونثاجا ولايبا برفع الجثة لكي يأتوا بها إلى القسم. وضعوها في سيارة الدورية، في المقعد الخلفي، ولكي يستطع لايبا الدخول، كان عليه أن يرفع رأس الجثة ويضعها على ساقيه. وأدخلوا كاررانثا الحمَّال أيضًا، وفضَّل الحمال أن يجلس على طرف المقعد، على أن يضع أي جزء من الجثة فوق جسده، ضاغطًا ساقي الجثة

على ظهر المقعد.

لم يكن الحمَّال ولايبا مرتاحين، لكن على نحو ما، كان الموقف يروق للايبا. حتى إنه تشجع على إطلاق مزحة – ((بما أننا في هذ الوضع، يمكنها أن تمتص عضوي))– وهو ما أثار قهقهة بنديني وجونثاجا.

كان بنديني مُعجبًا بلايبا؛ كان مُعجبًا به لدرجة أنه شعر بالقلق ذات مرة. كان هذا بعد حُلم. استيقظ بقلبه يخفق بقوة وصورة لايبا، ناصعة للغاية، ثابتة في رأسه. لايبا عاريًا، الجذع أسمر وبدون شعرة واحدة، تمامًا كما رآه بنديني مرات كثيرة. لكن هذه المرة كانت مختلفة. منذ ذلك الحين، منذ ذلك الصباح، قرر أن يغير معاملته مع لايبا وأن يجعل جونثاجا هو المُفضل. ربما كان هذا هو ما حدث: الكثير من الاهتمام بلايبا جعله يلج في النهاية إلى أحلامه.

الآن، فجأة، لم يُعِر اهتمامًا لتعليقات الفتى – لأن لايبا لم يكن سوى هذا: مجرد فتى–، في الصباح لا يحييه وفي المساء لا يودعه، يكلفه بأكثر المهام بغضًا – دفع الضرائب، فرض النظام بين الهنود–، ويجعله يجلس في الخلف في سيارة الدورية.

لكن عدم اكتراث لايبا إزاء تغير المعاملة أصابه بالحيرة. الصبي – الآن سنطلق عليه هذا: الصبي– لم يَبْدُ أنه معنيّ بالأمر وواصل روتينه كشرطي قروي، فتى سعيد مثل أي فتى آخر. بالإضافة إلى هذا، بالطبع، لم يكن جونثاجا قادرًا على ملء المساحة التي كان لايبا يملؤها. جونثاجا صبي – صبي آخر– محدود الذكاء، هكذا يُفكر بنديني رائفًا به. لا يقوم سوى بالضحك، والأسوأ من هذا أنه يضحك على أكثر الأشياء سخافة.

بينما ينظر للجثة بتوتر، كان بنديني يفكر في أمرين: في لايبا – الرغبة في تناول الماتيه، أو زجاجتي بيرة مع لايبا، بينما يتحدثان عن أي شيء– وفي كاررانثا، ما العمل مع كاررانثا؟ الشيء الوحيد الذي عنَّ له حتى الآن، بعد أن وصلوا إلى القسم، كان تصفيد رسغه إلى قوائم إحدى الموائد – ((كإجراء احترازي))، شرحوا له. لهذا كان كاررانثا الآن في وضع غير مريح، كأنه مُنْحَنٍ. يريد أن يتحمل كل الرغبة في البكاء لكنه لا يستطيع؛ البكاء، الدموع، كان تطفر منه كشلال.

– لا توجد مشكلة– يريد بنديني أن يخفف عنه، ويناوله ماتيه. كاررانثا، بدون التوقف عن البكاء، يقول لا برأسه. وجهه يتشوه من البكاء، والدموع والمخاط يتراكمان في الأخاديد التي تركتها التجاعيد. مسكين كاررانثا.

بنديني يعرف هذا، أن الحمَّال ليس سوى مسكين بائس غير قادر على أذى أي شخص، لكنه لا يستطيع أن يقول له أن يذهب، إن كل شيء على ما يرام. لكن لا يمكن أن يظل هكذا، فكَّر بنديني.

– وكيل النائب العام سيأتي، سيوجه لك سؤالين، وستذهب في ((داهية))– عاد لتهدئته. لكن كاررانثا لا يستطيع التوقف عن البكاء. يعرف أنه لا يوجد أي وكيل نائب عام على وشك الوصول. بكاؤه يختلط الآن بصراخ الببغاوات.

((أبناء عاهرة))، تنهد بنديني. سار حتى دولاب المستندات وعبث بين الأوراق حتى عثرت يداه على نبلة. عاد إلى البهو وبحث عن أحجار صغيرة على الأرض، بين التراب. اختار بعضها. وضع أحدها في الجزء الجلدي من النبلة وقام بشد المطاط، في البداية إلى أسفل، مصوبًا إلى الأرض. حينئذ سمع نحيب كاررانثا مرة أخرى، أكثر الأشياء إثارة للضيق. رفع النبلة وصوب باتجاه الحمَّال:

– إيه، كاررانثا؟– قال.

نظر له الحمال، وبعد الفزع الأوليّ، قطع بكاءه فجأة، تجمد كتمثال. وفي حركة سريعة، دار بنديني على عقبيه وأطلق الحجر. في طريقه أصدر المقذوف صريرًا حادًّا وانقطع فجأة. كان تصويب بنديني جيدًا؛ لأن نعيق الببغاوات أصبح أقوى في البداية، لكنه أخذ في الخفوت بسرعة. لا بد أن أحدها قد سقط.

لبرهة، بضع ثوان، يسود الصمت، لكن بعد قليل، عادت الببغاوات مرة أخرى لصراخها، وكاررانثا المقيد يواصل بكاءه.

4

ـأُنظر لهذا المحمول، إنه جوهرةـ قال العمدة.

كان إيبانيث رجلًا غريبًا. وُلِدَ في القرية، ومنذ كان شابًّا حمل على عاتقه مهمة الصراع لكي تتجاوز ((لاجونا فريا)) وضعها كمجرد مكان ضائع وتصبح قرية. الآن يشغل منصب العمدة منذ خمسة عشر عامًا، وكان سعيدًا بوجود صحفي من مدينة ((ريسيدنثيا)) في ((لاجونا فريا)).

ـمن المؤسف أن تأتي من أجل هذين الأبلهين ـ قال لريينا ـ، إنهما شخصان طيبان، لكنهما أيضًا ساذجان إلى حد كبير. انظر للمحمول، إنه مُزود بجي بي إس GPS.

وصل ريينا إلى إيبانيث بعد أن تحدَّث مع شرطة ((لاجونا فريا)) ومع مالك البنسيون حيث كان الناشطان البيئيان من منظمة VIDAS يقيمان، حسبما قِيل له. لم يعثر في أي مكان على أي معلومة يُمكن أن تفيده بأي شيءٍ. في القسم ـ مبنى صغير ومترب، تحرسه أربعة كلاب ضخمة، تقريبًا مشوهون ـ لم يعيروه اهتمامًا، ولا حتى عاملوه بشكل سيئ.

ـأُنظر يا صديقيـ قال له أحدهم، الذي عرف ريينا بعد ذلك أنه الضابط بنديتيـ، لدينا هنا الكثير من العمل، وهكذا، فلتذهب للتنزه هذا الصباح وبعد ذلك يمكننا أن نتحدث بهدوء.

لم يَبْدُ أن رجال الشرطة لديهم الكثير من العمل. لكن ريينا لم يمتلك الشجاعة للإلحاح. كما لم يرغب في الاستفسار كثيرًا من صاحب البنسيون؛ رجل ألماني عجوز وقليل الكلام. اسمه ليمبير، والشيء الوحيد الواضح الذي استطاع ريينا أن يخرج به منه أن الشخصين اللذين يبحث عنهما كانا ماجنين.

إن كان قد ذهب بعد ذلك إلى مبنى البلدية، فلأنه اكتشف أنه قريب، في ذات منطقة البنسيون. اندهش ريينا للشبه بين مبنى البلدية وقسم الشرطة، كأن تصميم كلا المبنيين صادر عن عقل واحد، وهو أمر محتمل للغاية. لكن ما إن أصبح في الداخل، حتى اكتشف اختلافًا مهمًّا: في مبنى البلدية يوجد تكييف هواء مركزي، متعة كان رجال الشرطة يتوفرون عليها في مكتب صغير.

ـلأن تكييف الهواء لم يعد رفاهية في هذه المنطقةـ شرح له العمدة إيبانيثـ: الآن أصبح حاجة ضرورية. بغير هذا لا يمكن للمرء أن يعيش هنا.

كان العمدة قد خرج من مكتبه ليملأ ماءً من جهاز تبريد، وحينئذ رأى ريينا، الذي كان يحوم شبه تائه في بهو المدخل.

ـالسيد هو...ـ سأل إيبانيث، وما إن عرف حتى قام بحمل ريينا إلى مكتبه وظل معه طوال ما يقرب من ساعة. في تلك الساعة تحدَّثا عن كل شيء ـ بالأحرى، إيبانيث تحدَّث عن كل شيء. اكتفى ريينا بالاستماعـ لكن أكثر ما لفت انتباه ريينا كان إصرار العمدة على إقحام ابنه، بيبو، في كل موضوع.

ـهذا المحمول أحضره بيبو من ((الشرق)). كل شيء أرخص هناك. أحضر أربعة هواتف محمولة، وهذا كان من نصيبي.

لم يكن لدى ريينا مفر من الإمساك بالمحمول. لم يكن باستطاعته سوى الاعتراف بأنه جهاز لافت للنظر ـ على الأخص إنْ قارنه بالمحمول الذي أعطوه له في الجريدة، قالب طوب عفا عليه الزمن وأحيانًا كان يفقد الشبكةـ لكنه لم يعلِّق بأي شيء للعمدة. كما لم يوحِ بالانطباع الذي كان إيبانيث ينتظره.

كما قلنا، كان إيبانيث شخصًا غريبًا. أدرك ريينا هذا عندما قام العمدة فجأة، بين ثرثرته حول المحمول وحول مزايا ((لاجونا فريا)) بالتباكي وقال إنه لم يعد قادرًا على المزيد.

ـأنا مرهق، لديَّ الكثير من الضغوط. وبيبو لا يساعد في أي شيء.

لم يردّ ريينا. أي رد يمكن إعطاؤه على مثل هذا الاعتراف. بالأحرى ظل ريينا ساكنًا، بينما يرى كيف يقوم إيبانيث بفرك عينيه المحتقنتين ويطلب من أن يمد له يد العون.

ـساعدني ـ قال لهـ، أنت من المدينة، ولا بد أنك تعرف طريقة ما.

نظر ريينا إلى إيبانيث مرة أخرى: نحيف، أناقته غير مألوفة ـ كان يرتدي قميصًا بنفسجيًّا مفتوحًا بما يكفي لكي تطل سلسلة ذهبية من عنق العمدةـ وبكائه الغريب. فحصه بدقة وقال لنفسه إن التعاون مع شخص كهذا لن يؤدي

إلا إلى الفشل.

* * *

مشكلة بيبو كانت في طباعه: كان فتى متكلفًا للغاية. ولكي يكون المرء متكلفًا في ((لاجونا فريا)) لا بد أن يمتلك أشياء كان بيبو يمتلكها بإفراط: دعم وشخصية قوية. الدعم، بالطبع، كان يمنحه إياه إيبانيث؛ لم يكن هناك أي شخص قادر على الاستهزاء بابن العمدة، خاصة إذا كان العمدة مثلما كان إيبانيث. والشخصية القوية تأتيه بالطبع من هذا الدعم. كان بيبو يعرف أن ((لاجونا فريا))، لكي نَصِف هذا بشكل ما، تحت قدميه.

كان بالغ النحافة مثل إيبانيث، لكن ربما كانت طريقته في اختيار الملابس تجعله يبدو أكبر حجمًا: ألوان فاقعة، بضعة مقاسات فوق الضروري، ودائمًا أحذية بيضاء. ورأسه الحليق، المدور، الصغير، كان يوحي بانطباع عام بأن بيبو، بالإضافة إلى أنه متكلف، كان أحمقَ أيضًا. لكن لا، يمكننا أن نؤكد أنه لم يكن أحمق.

نساء القرية – النساء القليلات هناك– كن يتحدثن معه، يحيينه، ويجبن على أسئلته. الرجال كانوا يُفضِّلون تجنبه بقدر المستطاع. عندما لم يكن أمامهم مفر، كانوا ينتظرون نافدي الصبر أن يقوم بيبو ذاته بأخذ زمام المبادرة. ولم يكن بيبو شخصًا سهلًا: كان يختار الحديث عن الجنس دائمًا. كان يلقي بنكات بذيئة، تعليقات سوقية، وبالأحرى ماجنة. كان الرجال يسمعونه، وإن أمكنهم يبتسمون. قليلون للغاية كانوا يُقْدِمون على إضافة نكتة جديدة، قبل أي شيء لكي لا يشعروا أنهم على مستوى بيبو في خفة الظل وسوء الأخلاق.

كان هنود ((لاجونا فريا)) هم الوحيدين الذين يسخرون منه. لكن الهنود لم يكونوا مثل بقية البشر؛ لهذا لم يكن بيبو يهتم كثيرًا بهذه الوقاحة. على العكس، كان يضحك معهم. بالإضافة إلى هذا كان اثنان من الهنود هما اللَّذَيْن لفتَا نظره، ذات مساء، إلى أن النظارة الشمسية التي يحملها كانت نسائية. كان بيبو يعرف هذا، ما هي المشكلة في هذا؟ أي شخصٍ آخر – بخلاف هندي ثقيل الظل– سيقول أي شيء؟

وصول ريينا إلى ((لاجونا فريا)) أيقظ فيه اهتمامًا جديدًا: الشعر. لكي يضفي

على نفسه أهمية أمام إيبانيث، تحدَّث ريينا عن هوايته الأدبية. ذكر بعض المؤلفين الذين لم يكونوا يعنون شيئًا للعمدة، لكن بالنسبة لبيبو، الذي كان هناك، مشاركًا في هذا الاجتماع الصعب، كانوا يعنون السماء بالنسبة له، تطلعًا، شيئًا ليؤمن به:

–أنا أيضًا شاعر– قال لريينا.

حينئذ شعر ريينا بالخجل. لم يكن يحب استغفال الناس، لكن إن كان العمدة قد طلب مساعدته، فيجب أن يشعر بقدرته على مد يد العون له.

–أعطيك دروسًا مقابل خمسمائة بيزو– عرض على بيبو.

ولأن المال لم يكن يشكل بالنسبة له أي مشكلة، قال بيبو نعم، إنه موافق، ومن الخلف، حيث كان يسمع الحوار، أطلق إيبانيث تنهيدة طويلة معبرة عن الراحة.

الآن كانت المشكلة هي العثور على مكان مناسب للإقامة.

–لا أحتاج الكثير– قال ريينا–: حمام صغير، فراش، موقد صغير، واتصال بالإنترنت. لا أطلب شيئا سوى هذا.

حينئذ قاده بيبو حتى المكان الذي سيصبح محل إقامته خلال الشهرين التاليين: شقة صغيرة مبنية في الجزء الخلفي من بيت قديم. لكي يدخل، كان عليه أن يفتح أولا بابًا من شبكة حديدية، كان في حالة تتطلب شيئًا من الزيت، أو إحالته للتقاعد. بعد ذلك عبور ممر طويل، رأى ريينا أنه ضيق للغاية، حتى الوصول إلى باحة داخلية. هناك يوجد سلّم خشبي صغير، يقود مباشرة إلى باب المسكن. مُقدمًا لم يرُق المكان لريينا، وبشكل خاص عندما رأى أن بعض الدرجات تنقص السلم. لكن إن كان بيبو يقول إن هذا هو أفضل مكان، فلن يناقشه في هذا.

مالك الشقة – والبيت الذي يوجد أمامها– يدعى ميلر، ولم يكن يتواجد في ((لاجونا فريا)) مطلقًا، وهذا وضع مثالي برأي بيبو: ((لن يضايقك أحد بالضوضاء والحفلات)). طالما يتم دفع الإيجار في موعده، فلن يظهر هذا الرجل، ميلر.

المشكلة الوحيدة للمسكن أنه كان مشغولًا. كانت هناك عائلة من السكان

الأصليين، رجل وامرأته وابنان، فضلًا عن عجوز، وعلى الأرجح كانت الجدة.

فتح بيبو الباب صارخًا.

ــحسنًا، فليخرج الجميع من هنا.

لم يعترض الهنود، بدءوا في جمع أغراضهم في صمت لكن ببطء.

ــاللعنة، يا لرائحة الخراء!ــ أسرع بيبو في دفع الأشياء بقدميه، بينما تتحرك العائلة بالكامل، بالأعين ثابتة على الأرض، كمجموعة من اللاجئين.

ــلا داعي لهذا، فلنبحث عن مكان آخرــ قال ريينا بينما ينظر إلى طفل ذي أنف متسخ بالمخاط ويحمل بين يديه كيسًا مليئًا بالملابس.

ــاسمع كلامي، هذا هو أفضل مكان.

ــلكن لا بد أنه لا يوجد إنترنت هنا...

قبل الخروج، توقفت عجوز العائلة أمام بيبو وأطلقت في وجهه ما يشبه اللعنة بلغة غير مفهومة.

ــغوري في داهية يا امرأةــ ردَّ عليها بيبوــ: فأنا نظيف للغاية.

بعد ذلك دفع العجوز دفعة ألقت بها نحو ريينا. ساعدها هذا على النهوض، وعندما وقفت العجوز على قدميها، كررت اللعنة، هذه المرة موجَّهة لريينا.

ــاخرجي الآن، يا عجوز يا عاهرةــ قال بيبو.

ــتوقف قليلًا. ــتوسل ريينا، الذي أصيب بالضجر، وكان يفكر، قبل أي شيء، في صعوبة التخلص من رائحة الهنود من البيت.

5

نعود إلى بيبو مرة أخرى: وصل على التو إلى المكان الذي عثروا فيه على جسد – أو جثة– سارة. كان ريينا قد رحل عن المكان قبل ساعة وذهب لاستعادة كاميرته. مثل ريينا، لم يفعل بيبو الكثير: ينزل من السيارة الستروين، يفرد أطرافه، ويجثو على ركبتيه، مُخطئًا المكان الصحيح ببضعة أمتار.

قرفص بطريقة تشبه ما فعله ريينا من قبل، لكن على العكس من ريينا، لا زال يشعر بالحر، لا زال يشعر بالهواء الساخن الذي يسود الجو، كان بيبو قادرًا على ارتجال قصيدة من أجل سارة. قال لنفسه: قصيدة لطرد الأرواح الشريرة من المكان، من هذه القضبان المليئة بالشر.

مُقرفصًا، بعينيه شبه مُغمضتين بينما ينظر للشمس، كان يكتب بضعة أشعار على عجل بالضغط على أزرار المحمول، بدون النظر للشاشة الصغيرة. تتحدَّث القصيدة عن ((لاجونا فريا))، عن سمائها الصفراء، ويجتهد بيبو في عمل قوافٍ من كلمات مثل ((وحدة))، ((حِدَّة))، ((شِدَّة))))، والكثير غيرها. بعد درس الشعر الأول، قال له ريينا إنه، أي بيبو، لديه كل الإمكانات لكي يصبح شاعرًا ممتازًا؛ إنه يُفكر ويعيش كشاعر، ولا يتبقى سوى أن يضع موهبته على الطريق السليم.

انتهى من الكتابة في المحمول، وبينما لا زال مُقرفصًا، يقرأ بصوت عالٍ. يعجبه ما يقرأ. يُعيد القراءة ويعجبه بشكل أقل. هذا يحدث له دائمًا. يشعر بالسعادة مع القراءة الأولى، يشعر أنه قام بعمل شيء مهم، لكن بعد لحظات، مع القراءة التالية، يتبخر الحماس. يرى أخطاء، أشياء ناقصة. يُصحح ويعود للقراءة بصوت عالٍ، بينما لا زال مقرفصًا. القصيدة لم تعد هي ذاتها. ويصبح الأمر أكثر صعوبةً بسبب المساحة الصغيرة التي تتيحها شاشة المحمول لعرض القصيدة عليها. يقرأ للمرة الأخيرة، ويشعر بالإذعان أكثر من الرضا.

ذهب حتى السيارة وفتح أحد البابين الخلفيين:

– هيا، انزل– قال آمرًا.

نزل من العربة رجل هندي، عجوز ونحيف، وجهه مُغطى بالأخاديد السوداء التي تبدو كالأوشام. كان يرتدي بنطلونًا لونه ضارب إلى الرمادي، ولا بد أنه كان أبيض في السابق، وفانلة بحمالات وردية اللون. ملابسه مليئة بالثقوب. كان حافيًا ويحمل كيسًا من الخيش. قاده بيبو من ذراعه حتى القضبان.

– هنا يا لوخان – قال–: قم بعملك بسرعة.

رسم الرجلُ العجوز دائرة في التراب بقدمه اليمنى، وبيديه أتى بإشارات لكي يبتعد بيبو. استجاب له بيبو، رغم أنه لم يكن مُقتنعًا. بعد ذلك، أخرج الرجلُ العجوز من كيسه شخشيخة من أظافر الخنزير، هزَّها ليقيس الصوت وبدأ أغنية. نغمة صوته تشبه النحيب. حسب علو أو انخفاض النغمة، كان الرجلُ العجوز يضيِّق عينيه أو يغلقهما تمامًا.

في أثناء ذلك كان بيبو يرقب الطقس بشيء من الرفض، لكن في ذات الوقت باحترام. كان يريد أن ينتهي الرجل العجوز بسرعة.

– هيا يا لوخان، أَسرِع – قال بصوت خفيض. لكن في تلك اللحظة جعل الرجلُ العجوز الطقسَ أكثر حدَّة، وبدأ يقفز، داخل الدائرة دائمًا. ((زي الفل))، فكَّر بيبو وعاد للسيارة.

فتح الباب وجلس ينظر من هناك، بساقيه إلى الخارج، في وضع أكثر راحة. تحمَّل بضع دقائق، لكن لم يَبْدُ أن الرجل العجوز سينتهي قريبًا. حينئذ قام بتشغيل الاستريو، متوخيًا ألَّا تخرج الموسيقى من السيارة. بدون التوقف عن النظر للرجل العجوز ، يقوم بتحريك مؤشر الراديو حتى وصل لأغنية أعجبته. كانت أغنية تشكاريرا، ((ادخُل بيتي دون أن تطرق الباب)). إنه يحب الفولكلور، يُذكره بطفولته، عندما كان أبوه يصطحبه إلى موالد ((لاجونا فريا)) أو القرى المجاورة. لكن لم تعد هناك موالد تقريبًا. كما لم يعد هناك فنانون فولكلوريون يعزفون تشكاريرا، الفرق الموسيقية القليلة تُفضِّل عزف ((تشاماميه)) أو ((كومبيا)). بعد ذلك فكَّر: ((أنا كاتب أغاني تشكاريرا جيد، يجب أن أهتم بهذا أكثر)).

– المكان نظيف– قال العجوز. قام بقفزة أخيرة، مُسببًا عاصفة ترابية صغيرة، والآن يقف أمام السيارة منتظرًا أن يقول له بيبو ماذا يجب أن

يفعل.

ـ لا يمكنك أن تصعد للسيارة وأنت قذر هكذاـ قال له. ظل العجوز بدون حركة.

نهض بيبو واتجه إلى شريط القطار. الدائرة التي رسمها العجوز لا زالت مرئية، على الرغم من الرقص والطقوس.

ـ احذَرْ أن تلمس شيئًا هناكـ صرخ به العجوز ، وبعد ذلك، مخالفًا التحذير السابق لبيبو، صعد إلى السيارة. توقَّف بيبو: كان على وشك أن يمحو الدائرة.

ينظر حوله مرة أخرى، ويعود للسيارة، مدندنًا بـ((ادخُل بيتي دون أن تطرق الباب)).

* * *

مرَّ ريينا بجوار الكلاب متوخيًا ألَّا يضايقهم. الكلب النائم مخلوق غادر، وهو يعرف هذا: ذات مرة، في إحدى زياراته الأولى للقسم، اتجه إلى الباب بحسن نية، وقام أحد الكلاب، الذي كان يبدو نائمًا مثل الآخرين، بالإمساك بطرف البنطلون. بالكاد احتكت أنياب الكلب بساقه، لكن الفزع كان كافيًا لكي يتصرف ريينا بحذر أكبر منذ تلك اللحظة. على أية حال، فإن الكلاب كانت تلهو، يتمرغون في ظل بضع شجيرات.

عندما دخل ريينا القسم، وجد لايبا وجونثاجا يلعبان ((ضغط الإبهام)). كانا متواجهين في جلوسهما، يفصل بينهما مكتب، وفوقه يعتمدان بكوعيهما الأيمنين. كانت يدا الضابطين اليمنيان متشابكتين فيما يشبه قبضة القرد، التي تترك أصبعي الإبهام حُرَّتين، مشيرتين إلى أعلى. أصبعا إبهام تتقوسان وتنثنيان، تتصارعان مثل لاعبي ملاكمة مقطوعي الأيدي.

ـ لقد وصلت الملكة...ـ يسخر لايبا، المنتبه دائمًا لحركة أصبع خصمهـ ماذا جاء بك؟ هل تبحث عن أمير؟

ـ أبحث عن كاميرتيـ ردَّ ريينا.

ـ تعال لتأخذها فيما بعد. لم نقم بتحميل الصور حتى الآن.

ـ لكن يجب أن أعمل...

ـ تعال فيما بعد.

لم يتحرك ريينا، يظل ناظرًا إلى صراع الإبهامين، مشدودًا للعبة. إبهام لايبا تبدو أكثر عزمًا، إبهام تقوم بالهجوم، بينما إبهام جونثاجا تجتهد في الاحتفاظ بالمسافة. كلما استطاع جونثاجا أن يتخلص من هجوم غريمه، احتفل بمزيج من القهقهة والكلمات غير المكتملة.

القسم مُعتم وقذر في الداخل. شخص ما قام بتغطية الفتحات، والضوء الوحيد يأتي من مصباح فلورسنت مُغطى بالأوساخ. وباب قديم من ضلفتين يؤدي إلى مكتب المأمور، وباب آخر مثيل، لكن أكثر قدمًا وأكثر تدهورًا يؤدي إلى صالة يستخدمها رجال الشرطة في أوقات الراحة وأيضًا لاحتجاز المقبوض عليهم. من هناك يمكن العبور إلى البهو.

حرارة الجو، الشعور بالاختناق، يجعلان ريينا يتجاهل صراع الإبهامين بين لايبا وجونثاجا، ويُركِّز على مروحة رأسية تركها الشرطيون في أحد الأركان. كانت إحدى هذه المراوح القديمة، الثقيلة، نصالها من الصفيح. سأل ريينا الشرطيين إن كان الجهاز لا يعمل أم أنهم يستمتعون بالعذاب في الحر. حينئذ ينظر له لايبا ويقول له:

ـ ماذا تظن أنت؟

ينتهز جونثاجا شرود زميله لكي يهجم في النهاية بإبهامه. شعر لايبا بالضغط على إبهامه وردَّ الضغطة بيأس. لكن جونثاجا كان قد بدأ في عدِّ الضربة القاضية:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة...

ـ انتظر يا وسخ، قُم بالعد ببطء.

ترك ريينا الشرطيين في نزاعهما وتسلل خلسة نحو أحد الأبواب، الذي يؤدي إلى الصالة. كان قد ذهب إلى قسم الشرطة بضع مرات من قبل؛ رغم أنه يعترف بثقل الجو، والمعاملة السيئة لرجال الشرطة، إلا أنه لم يكن يقضي وقتًا سيئًا تمامًا هنا. بالفعل، ربما يجب عليه أن يعترف أنه يشعر بالراحة والأمان، أكثر من أي مكان آخر في ((لاجونا فريا)).

لكن ذلك الشعور، هذه الراحة الغريبة، تأخذ في التبخر ما إن يفتح الباب.

6

– لا يا رجل – بدأ العمدة إيانيث يشرح له بالصحيفة في يده–، لا علاقة للمنظمة بالألمان في القرية. إنهم في الحقيقة من بوينوس أيرس.

بعد أسبوع في ((لاجونا فريا))، لم يرسل ريينا إلى الجريدة إلا خبرًا مليئًا بالمعلومات غير الدقيقة. كان الخبر يقول إن الرجل والمرأة اللذان اختفيا كانا من الجالية الألمانية. اعتمد ريينا في هذا الادعاء بشكل أساسي على لقب عائلة الذكر ((فوشيك)). لكن ((فوشيك اسم بولندي يا بابا!))، سخر منه إيبانيث)، ولم ينتبه للقب عائلة المرأة، الذي كان ببساطة ((ريينوسو)). كما طرح ثلاث فرضيات: من جانب، أن فوشيك وريينوسو ربما كانا ضحيتين للصيادين غير الشرعيين في المنطقة، أو ضحيتين أيضًا لمنتجي الصويا أو الأرز، أو أي مزروعات أخرى كانت المنظمة تشجبها. ومن جانب آخر، كفرضية ثالثة – فرضية تم عرضها بشيء من الحذر–، كان ريينا يُلمِّح في خبره لاحتمال أن يكون فوشيك وريينوسو قد هربا بشيء ما – مال على سبيل المثال– يخص المنظمة. في النهاية، كان الخبر يؤكد على أن شرطة ((لاجونا فريا))، بمساعدة إدارتي منطقتي (ساينث بيينيا) و(ريسيستينثيا)، تواصل ((تمشيط)) (هذا هو التعبير الذي استخدمه ريينا) الأراضي المجاورة بحثًا عن المفقودين. سأله إيبانيث بخبث: ((هل رأيت أحد رجال الشرطة في القرية يتحرك من مكانه؟)).

الآن يسخر منه إيانيث في وجهه (أين درست الصحافة؟، سأله)، وفي ذات الوقت أعطاه درسًا:

– انظر: أهل بوينوس أيرس يأتون بمال وبخبرة في الأوراق. لديهم دراية بالمستندات. بينما يقومون بأمورهم المتعلقة بحماية البيئة، يقومون بجمع المال من طريق آخر لكي يُمولوا أنشطتهم. هنا في القرية، يتحكمون في كل شيء مربح للمال.

– وما هو الذي المربح هنا؟ – قاطعه ريينا، بدون الانتباه إلى أنه يصحب السؤال بوجه متقلص. إشارة إلى التقزز فضَّل إيبانيث أن يتجاوزها لكي

يواصل شرحه:

ــ حيث يوجد القليل من الماء، فإن أكثر ما تحتاجه هو الماء. وسيصبح هو أغلى شيء أيضًا. رأسمالية خالصة. قد تكون من المدينة، لكنك ساذج إلى حد ما، أليس كذلك؟

فكَّر ريينا في كمية أجهزة المياه التي رآها خلال تلك الأيام، كثيرة بالنسبة لقرية صغيرة. كما رأى آبارًا لم تعد تُستخدم، سُدَّت فوهاتها، أو تقوم بدور أصص ضخمة للأعشاب البرية.

ــ لقد انتهى عصر الآبار يا عزيزي ريينا، يا ملكتي ــ قال له إيبانيث ــ. لا يمكن رفض التطور. هذا هو ما تقدِّمه لنا المنظمة بواسطة جهاز المياه: التطور. بعيدًا عن التجارة التي يقومون بها، التي قد تعجبك أو لا، هذه القرية يجب أن تتطور. وهل تريد لها أن تتقدَّم ببئر؟ انظرْ، انظر جيدًا كيف يتغير وجهك مع جهاز المياه.

على نحو ما، فكَّر ريينا، ما قاله العمدة حقيقي: في تلك الأيام رأى جهاز مياه في كوخ يسكن به سكان أصليون. ذهب إلى الكوخ بحثًا عن رجل عمل مع فوشيك وريينوسو كدليل في رحلاتهما إلى الجبل، حسبما قِيل له. بمجرد الإطلال داخل الكوخ، شعر ريينا مرة أخرى بالرائحة الثقيلة للهنود ولم يمكنه عقد اللقاء الذي كان يتوقعه. لم يستطع حتى تمييز الرجل الذي يبحث عنه. كل الهنود الذين رآهم، بما فيهم الأطفال، يبدون له متشابهين، نفس الوجوه، نفس التعبيرات. بالكاد قال أربع كلمات من فرجة الباب (((صباح الخير، السيد إسكوبار؟)))، وتقريبًا في ذات اللحظة أدار رأسه، كأنه يريد تفادي لكمة، وأمكنه أن يرى جهاز المياه قبل أن يبدأ في التراجع. كان قائمًا على الأرض الترابية. شيء غريب تمامًا على المكان.

الآن، بينما يسمع العمدة، فكَّر ريينا أيضا في الساعات الأربع اليومية التي كان يوجد خلالها مياه جارية في القرية (لدى فتح الصنبور، يُطلق في البداية ما يشبه الحشرجة، كأنما يعاني من ضيق في التنفس، وبعد ذلك يلفظ بضع نقاط ترابية)؛ وفكَّر، على الأخص، في الإسهال الذي أصيب به لشربه من ذلك الماء.

– المنظمة تؤجر لك الجهاز والعبوات – واصل إيبانيث– وإن لم يكن الأمر هكذا، يبيعون لك مباشرة زجاجات سعة لتر ونصف، لترين، ما يريد المرء. لديهم اتفاق مع ماركة وطنية ويوزِّعون في كل الأقاليم. تقوم المنظمة بتوزيع كل الماء الذي يتم تناوله في تشاكو.

شعر رينا بالعطش، لكن رأى من غير المناسب أن يذهب لتناول كوب ماء. على العكس، سعل قبل أن يسأل:

– وهل يمكن ربح مال كثير من بيع الماء؟

– لا، لا يرُبح أي شيء، أموال تافهة يمكنك أن تربحها هنا. لكن حسنًا، أفضل من لا شيء.

*** * ***

كان يفتقد أولجا كثيرًا. منجرفًا خلف الحنين، نسى رينا كل اللحظات المؤلمة. تذكَّر مرة، في وسط إحدى أزماته الكثيرة، عندما عرضت عليه جلسة تصوير إيروتيكية.

في تلك الليلة ذاتها قاما بالتجربة: هيأت أولجا غرفة النوم بتغطية المصابيح بالسوليفان الأحمر؛ نثرت وسائد صغيرة فوق الفراش؛ جاءت بحاجز قابل للطي، ووضعته أمام المرآة التي كانت تعكس بشكل كامل كل ما يفعله الشخص المختبئ خلف الحاجز؛ وضعت موسيقى هادئة، رومانسية؛ أشعلت شموعًا مُعطرة وملأت أكوابًا بالكريز. لم يكن عليه سوى أن يأتي بكاميرا الصور، كاميرا الصحيفة في الحقيقة، شبه احترافية لم يكن يتقن استخدامها تمامًا.

لكنه عندما وصل ورأى ترتيبات أولجا بدت له مثيرة للضحك؛ في البداية شعر بالرغبة في السخرية منها، بعد ذلك شعر أنه بذيء وسخيف. لم تَدَعْ له أولجا وقتًا ليواصل التفكير: خرجت من خلف الحاجز، عارية، لا تحمل سوى غطاء رأس لراهبة ومسبحة بين ثدييها.

– لقد أسأت التصرف يا أبت – قالت له–: عاقبني.

تردَّد رينا، لكن بعد ثانية واحدة أدرك أنه يجب أن يقوم بدوره، وقام بتعليق الكاميرا، رغم أنه فعل هذا بتعثر، وبدأ في التصوير: أولجا على أربع، بينما تضع المسبحة في فمها، أولجا راكعةً، يداها ترفعان ثدييها؛ أولجا على أربع

مرة أخرى، لكن الآن بمؤخرتها في مواجهته؛ أولجا تغطي حلمتيها بالكريز؛ أولجا مستلقية على الوسائد الصغيرة، على بطنها؛ ثم على ظهرها، بيد تداعب فرجها؛ وصور أخرى كثيرة على ذات الشاكلة.

على عكس ما تخيل، كان ريينا مهتاجًا للغاية. بين كل موقف وآخر، كان يختلس النظر للصور التي أخذها، ويفكِّر في أغلفة المجلات الإيروتيكية. أدهشه أن يكون الحصول على مثل هذه النتيجة سهلًا لهذا الحد، في بيته، ومع امرأته.

ــ الآن اقترب يا أبت ــ أمرته أولجا في النهاية. واستجاب لها ريينا. في المسافة البسيطة التي تفصله عنها، أخذ الهياج في الاضمحلال، وعلى العكس، بدأ الخوف المعتاد في الاستحواذ عليه، شيء شبيه بحموضة في المعدة. إزاء اضطرابه، عادت أولجا لإثارته (("ما الأمر يا أبت؟ هل تخشاني؟"))، وبدأت في خلع حزامه وإنزال بنطلونه.

ــ أنا مجنونة بك يا أبت.

ــ أنت جميلة ــ قال لها، وبينما كان بالسروال الداخلي، وببنطلونه ساقطًا، خَطا بضع خطوات إلى الخلف.

ــ نُجرب بطريقة أخرى ــ اقترحت أولجا، مُتخليةً مؤقتًا عن النبرة الناعمة المثيرة؛ لتأخذ موقفًا يمكننا أن نصفه على نحو ما، بأنها صاحبة القرار.

بينما كانت تختار ملابسها الجديدة، مختبئة مرة أخرى خلف الحاجز، كان ينتظر جالسًا على حافة الفراش، بسرواله والكاميرا متدلية من كتفه.

وضع يده بين ساقيه، كأنما ليقوم بالمساعدة؛ تنفس عميقًا ونظر بتركيز لكل صورة أخذها. أعجبته، كانت صورًا جيدة، وأعجبته أكثر عندما لاحظ أنها تأتي بتأثير.

في أثناء هذا ظهرت أولجا من جديد، هذه المرة متنكرة كممرضة. الطقس كان كسابقه، بنتيجة مماثلة. أمضيا الليلة في تجربة بدائل مختلفة.

ليلة جميلة، يفكِّر ريينا الآن، في ((لاجونا فريا)).

7

– قذارة! – قال بنديني–: ابن العاهرة هذا يرتدي سروالًا قذرًا.

كان الحمَّال كارانثا، المنحني على مكتب، بمعصمه مقيدًا إلى إحدى قوائم المكتب. كان بنطاله ساقطًا وداخل فمه خرقة، كأنها كمامة. بنديني، الذي كانت جبهته وإبطاه مغطيين بالعرق، يضربه بحزام على ردفيه. بالخرقة في فمه، كان خليط بكاء وتأوهات كارانثا يشبه صوتًا مكتومًا.

– هل تدرك، أيها الصحفي، أية أشياء يجب عليّ أن أتحمَّلها؟ تعال. اقترِب.

قَبِل ريينا الدعوة، رغم كل شيء بشكل لا إرادي: ساقاه تتحركان بمفردهما. أشار بنديني إلى المكان الذي يجب عليه أن يتوقف فيه، بالقرب من ردفي كارانثا، ويريه سروال الحمَّال. بالفعل: كانت هناك بقايا غائط على قماش السروال. امتعض فم ريينا كعلامة على التقزز، وفكَّر إنها طريقة ما لمصاحبة تعليقات بنديني. بعد ذلك، ما إن تجاوز الصدمة حتى جلس على مقعد عاقدًا ذراعيه على مسنده وسأل الشرطي عن كاميرته.

– أَنتهي من هذا وسأتولى أمر كاميرتك.

– وكم من الوقت سيستغرق هذا؟ يجب أن أرسل صورًا إلى الصحيفة، وبينما أقوم بتحميلها في الكومبيوتر وأقوم بإرسالها...

يقطع بنديني عبارة ريينا بضربة جديدة، صاعقة تشق الهواء (لاحظ ريينا، نلاحظ جميعًا، أن كارانثا يغلق ردفيه، حركة غريزية، وبعد ذلك يصدر عنه تأوه طويل: مممممم). بعد أن جفف عرق جبهته، قال له بنديني:

– يا لسهولة عملك: تأخذ صورتين، تكتب بضع تفاهات، وبعد ذلك تلهو كما يروق لك.

– ولا يبدو أن عملك صعب أيضًا. بل يمكن للمرء أن يقول إنه يعجبك.

الزعيق المفاجئ للببغاوات يختلط بقهقهة بنديني الذي يرد على ملاحظة ريينا. بدون أن يتوقف عن الضحك يقول الشرطي:

– الببغاوات أصابتني بالجنون، لا تدعني أفكر.

– إنها حيوانات لطيفة– أدلى ريينا برأيه.
– لطيفة حتى تقوم بالتكاثر فتصبح وباءً. إنها طيور حقيرة.
– أود أن أمتلك ببغاءً، أكثر بكثير من امتلاك كلب.
– أنا أود أن أرى إلى أي مدى يمكنك أن تتحمل ببغاءً. هذا النوع لا ينطق بكلمة واحدة ويدمر كل شيء.
– في ريسيستينثيا رأيت ببغاوات ت...

توقف ريينا عن الكلام لكي يولي اهتمامه لتحركات الشرطي، بالاندفاع المفاجئ للشرطي لكي يمسك بالنبلة – ذات النبلة التي رأيناه يستخدمها قبل دقائق– ويبدأ، مرة أخرى في التصويب على الببغاوات التي تثير الضجيج في قمم الأشجار. بمطاط النبلة مشدودًا عن آخره، يَعُدُّ الشرطي بهمس: ((واحد، اثنان، ثلاثة))، ويطلق مقذوفًا غير مرئي تقريبًا. تصويبه الجيد، هذه المرة، لا يدع مجالًا للشك: يسقط ظل ببغاوين من الأفرع.

– سأذهب لأرى– نهض ريينا مسرعًا لكي يصل حتى الأشجار. خلفه، أبطأ بكثير، يمشي بنديني.
– أنت، اِبق هنا– قال لكاررانثا، الذي لا زال مستلقيًا فوق المكتب، متأوهًا–، لا تواصل التغوط على نفسك.

ردُّ الحمَّال كان ((مممم))، أطول من السابق.

– تعال وانظُرْ– يصيح ريينا من تحت شجرة –: هنا يوجد اثنان، أحدهما نصف جريح.

يحث بنديني من خطاه. يوجد ببغاوان على الأرض، ممدَّدان على العشب. أحدهما بنصف رأس، كأن شخصًا ما تكفل ببتر الجمجمة الصغيرة بإتقان شديد، تاركًا الببغاء بجانب لا غبار عليه، والآخر غير موجود؛ كانت عينا الببغاء الآخر مفتوحتين، ويتنفس كأنه يطلب عونًا.

– هاك حيوانك الأليف – قال بنديني–: هدية مني لك.

رفع الشرطي الببغاء من جناحه. أمسك به لبرهة في الهواء، مؤرجحًا إياه، وبعد ذلك أمسك الجسد الصغير بيد، بينما بالأخرى، باليد التي تمسك الجناح،

جذب بسرعة فانفصل الجناح عن بقية الجسد.

– إنها لك– قال لريينا، وألقى الببغاء إلى أعلى، فرسم دائرة في الهواء قبل أن يسقط في يدي الصحفي. تلقفه ريينا بمزيج من رد الفعل الغريزي والتقزز. الببغاء الآخر، ذو نصف الرأس، ركله بنديني ركلة أبعدته بضعة أمتار عن مكانهما.

– لماذا...؟– قال ريينا.

– لكي لا تتعفن بالقرب من هنا، لماذا تعتقد إن لم يكن من أجل هذا؟– كانت هذه هي إجابة بنديني.

– كاررانثا – صاح بنديني–: حيِّ الطائرَ.

الحمَّال ميت. ميت ومستلقٍ فوق المكتب، كما تركاه. ظل بعينيه مفتوحتين وعلى وجهه تعبير رعب. تنساب بضعة خيوط من اللعاب من الفم الممتلئ بالخرقة. كان يبدو أن كاررانثا أراد أن يقول شيئًا، ولأن فمه كان مُغطى، لم يستطع؛ ظل جامدًا في منتصف الجملة. وبهذا الوجه المرتعب. بالإضافة إلى هذا، تكوَّنت بركة من البول تحته، حول قدميه.

– زي الفل– قال بنديني–: أي رغبة في إفساد حياة البني آدم.

* * *

لنذهب إلى بيبو قليلًا، لنرى ماذا يفعل. لنبحث هنا، ونبحث هناك. و... حسنًا، ها هو بيبو، انظروا له: يقف بالسيارة أمام مجموعة من الأكواخ، ويطلب من لوخان، الهندي، أن يظل في داخل السيارة، وينزل مصفقًا بكفيه.

– السلام– صاح بيبو– يا بشر، من يوجد هنا؟

خرج كلبان ودجاجة للقائه. الدجاجة نحيفة للغاية وتبدو مريضة. ابتسم لها بيبو كأنما يبتسم لطفل، وفكَّر في إمكانية أن يكتب شيئًا حول الدجاج، ربما بضعة أبيات شعرية. حيوانات نبيلة ومُسلية. طاف أمام الأكواخ متلصصًا من التجاويف التي يتركها الصفيح والكرتون غير المثبتين جيدًا. رأى أجزاءً من ظلال متحركة، وأدرك منها أن هناك أفرادًا في الداخل.

– سلام– عاد بيبو للصياح، لكنه تلقى قوقأة الدجاجة كإجابة. يشعر بالحزن

على الطائر وينحني ليمسك به بين يديه. لا تقاوم الدجاجة وتستريح على ذراع بيبو كأنه عُشٌّ.

– اسمها كوكو– قال له طفل ظهر فجأة، بشكل غير ملحوظ كأنه كان هناك طيلة الوقت. إنه أحد الصبية الذين عثروا على الجثة بجانب قضبان القطار.

– هل بابا أو ماما موجودان؟– سأله بيبو.

– إنهما في العمل.

– أي عمل وأي هراء؟– قال بيبو، وبالدجاجة على ذراعه اتجه مباشرة إلى باب أول كوخ أمامه. فتحه بدفعة خفيفة.

– هل إحداكن هي أم أو قريبة للصبي الموجود في الخارج؟

ظلت النساء الثلاث صامتات أمام اقتحام بيبو ورددن عليه ككورال – كورال صامت– بتحريك رءوسهن نفيًا. الكوخ في الداخل يشبه كل الأكواخ في ((لاجونا فريا)): أرض ترابية، أقل التجهيزات، وأغراض مستهلكة. النساء – اللائي يمثلن تراتب الجدة– الأم– الحفيدة– كن جالسات فوق صناديق خضراوات، بينما ينزعن ريش دجاجات ميتة. بشكل غريزي نظر بيبو إلى الدجاجة التي يحملها بين ذراعيه، مستريحة كرضيع، وسأل إن كانت قد هربت منهن. ردَّت عليه المرأة الأكبر سنًّا، التي تبدو الجدة. لكنها ترد على شيء آخر:

– الطفل اسمه داميان، وأنا خالته.

– سآخذه معي لمدة خمس دقائق– أعلن بيبو.

هزت المرأة كتفيها وعادت لنزع ريش الدجاج. قبل أن يذهب، قام بيبو بالتركيز قليلًا في العمل الذي تقوم به النساء، وتأمل في فكرة كتابة قصيدة من أجل تلك الحيوانات المسالمة.

بعد أن أصبح في الخارج مرة أخرى، نادى على الصبي، داميان، وقال له أن يصطحبه. وأعطاه أيضًا ورقة بعشرين بيزو.

– من أجل الدجاجة – قال له –: سآخذ كوكو.

8

نعتبر أن رغبتكم في معرفة شيء عن سارة أمر مفروغ منه. حسنًا، توجد حكاية صغيرة قالتها سارة لريينا في رابع ليلة تقريبًا قام بزيارتها في ((ثيركيتو)). حكاية وصولها – وصول سارة، بالطبع– إلى ((لاجونا فريا)).

كان عمرها ستة عشر عامًا. ذهب سائق إلى ألبيردي، باراجواي، ليصطحبها، ومن هناك عبرا في قارب حتى فورموسا، حيث كان السائق قد ترك سيارته. في فورموسا اصطحبا فتاتين أخريين. ومثل سارة، كانت هاتان الفتاتان تعتقدان إنهما ستذهبان إلى ((لاجونا فريا)) لتشتغلا كعاملتين. لكن ليس كعاملتين في ((ثيركيتو)) وإنما عاملتين منزليتين في بيوت منظمة VIDAS. في البداية استمع ريينا للحكاية بدون اهتمام؛ كان يعتقد أن سارة تكذب عليه، لكن امرأة مثلها – جريئة للغاية، كما فكَّر ريينا، لكن سارة لم تكن على الإطلاق ((امرأة جريئة)) حسب ما يُفهم من هذا التعبير، إن كانت هناك مثل هذه الفئة–، امرأة مثلها، كما كنا نقول، لا يمكن أن تدع نفسها تنخدع بهذه الطريقة. لكن عندما حدَّثته سارة عن المنظمة، أعارها انتباهه واستعدَّ لتدوين الملاحظات: ربما يمكنه الخروج بشيء من هذه الحكاية.

على أية حال، وصلت سارة على متن سيارة. اسم السائق أوريارتيه، رجل شاب، لا يتجاوز الثلاثين عامًا، له وجه طفل، وهو ما كان يُسهِّل له الفوز بثقة الناس. بناءً على توصية أرباب العمل، كان يجب على أوريارتيه أن يأخذ حذره عندما يتكلم، ألَّا يقول أكثر مما هو ضروري للغاية حتى يصلوا إلى ((لاجونا فريا)). لكن السائق لم يستطع إغلاق فمه كثيرًا. ما إن صعدت الفتاتان الأخريان إلى السيارة، لم يتوقف عن الكلام. في البداية عن أشياء عادية، عن الحر الذي لا يطاق، صعوبة الحصول على عمل جيد، هذه الأمور. لكن بعد وقت قليل، مندفعًا – يمكننا أن نقول هذا عن أوريارتيه، فقد كان رجلًا مندفعًا–، قام بلعب دور الناصح الأمين، أخذ يقدم لهن أفكارًا، نصائح صغيرة يجب أخذها بعين الاعتبار في ساعات العمل: كيفية معاملة الرجال، كيفية جعلهم لا يتجاوزون حدودهم، كيفية التصرف لكي لا يقوموا بإساءة معاملتهن. ورغم أنه شاب، كان يبدو أن أوريارتيه يعرف الكثير عن كل

شيء، وأظهر اهتمامًا بأمر الفتيات.

سارة، الجالسة في الخلف، كانت صامتة، بنظرتها ثابتة على الجبل القريب وعلى الطريق، ولا تستوعب سوى القليل مما يقول أوريارتيه. رفيقتاها الجديدتان – ميتشا وساندرا– تبدوان أكثر اهتمامًا بحديث السائق، كأنما تقومان بتدوين كل نصيحة من نصائحه. على أية حالة، فكَّرت سارة، بعد ذلك يمكنها أن تطلب منهما أن يعيدا لها ما قاله أوريارتيه.

لكن حينئذ، في وسط تلك التأملات، قاد السائق العربة إلى جانب الطريق، خبأها خلف لافتة إعلانية، وتحدث إلى ميتشا، التي كانت تجلس بجواره:

– سوف يطلبون هذا منك دائمًا– قال لها، بينما يقوم بإنزال البنطلون وممسكًا بعنق ميتشا بنعومة. اندهشت سارة لأن ميتشا انساقت واستجابت لطلب أوريارتيه. نظرت إلى ساندرا، الجالسة إلى جانبها، ولاحظت أن ساندرا لم تكن مندهشة أو معترضة. كل شيء في ذلك السائق كان تلقائيًّا لدرجة مربكة. حينئذ شعرت سارة أنها بلهاء إلى حد ما. لأول مرة، منذ غادرت ألبيردي، تشعر بالرغبة في البكاء. اكتفت بعدم التفكير في أي شيء وانتظار أن يعود السائق إلى الطريق.

عندما حدث هذا، عندما أصبحوا في الطريق مرة أخرى، عاد أوريارتيه إلى النصائح. أوصاهن بأن يتعلَّمن الرقص. الرجال يحبون دائمًا أن يروا كيف تهز النساء أجسادهن، قال. كانت النوافذ مفتوحة، والحر يدخل في دفقات عنيفة داخل السيارة.

– أنا أرقص جيدًا– قالت ساندرا، من الخلف.

– لا – اعترض أوريارتيه على الفور–، أنت لا تعرفين ما هو الرقص.

أخذوا يتحدثون لبرهة حول الرقص ومهارات أخرى للقيام بالعمل الذي ينتظرهن في ((لاجونا فريا))، حتى قاد أوريارتيه السيارة، مرة أخرى، خارج الطريق. لكن الآن لم يهتم بإخفائها، ببساطة أوقف السيارة بين الشجيرات.

بدأ قلب سارة في النبض بقوة. على العكس، تبادلت ميتشا وساندرا مكانيهما بينما تضحكان بصوت خفيض، على نحو هيستيري إلى حد ما. تفحص أوريارتيه سارا، وكان مع ساندرا أكثر فظاظة منه مع ميتشا، لكن ساندرا لم

تشتكِ. فعلت ما يجب عليها أن تفعل ببساطة، كامرأة خبيرة. خلال العشر أو الاثنتي عشرة دقيقة التي استغرقتها العملية، لم تتوقف ميتشا عن إطلاق الضحكات الخفيفة والنظر لسارة بحثًا عن التواطؤ، نظرات متوترة تريد أن يؤكد شخص ما على أن الأمور تسير بشكل جيد.

لكن قلق سارة أصبح خارج نطاق السيطرة. كل من صورة ساندرا، التي كانت تمتطي أوريارتيه، وهيستيريا ميتشا، تركتاها خرساء مذهولة. أرادت أن ترد بعض الابتسامات لميتشا، لكنها كانت تشعر أن وجهها من الحجر، غير قادر على الإتيان بتعبير واحد.

انتهى أوريارتيه وساندرا من مهمتهما وانهارا، في ذات اللحظة، كلٌّ في مقعده. بالتنفس متسارعًا، أعطى السائق نصيحة جديدة للفتيات:

ــ لا تتصنعن أنكن طيبات أو شريرات، لأنهم سيرسلونكن إلى الجنوب ولن تعدن مرة أخرى.

أرادت ميتشا أن تعرف المزيد عن الموضوع، لكن أوريارتيه كان قد أصبح متعبًا للغاية فلم يكن قادرًا على مواصلة الكلام. قال لهن، ببساطة، أن يأخذن بنصائحه.

ــ حر مميت ــ قال بعد ذلك ــ، هيا بنا نأكل شيئًا.

توقفوا لدى مطعم، بناء قديم ملاصق لمحطة الوقود، مكان تَوَقُّف معهود لسائقي الشاحنات. طلب أوريارتيه أربعة سندوتشات من اللحم (البانيه)، بيرة لنفسه، وسبرايت للفتيات.

بدلا من سبرايت أحضروا لهن (تشات ليما)، ماركة مياه غازية بديلة.

ــ أرخص ولها ذات المذاق ــ قال الفتى الذي كان يعطيهم العبوات الأكواب البلاستيكية من خلف الطاولة، كأنه شخص لطيف.

أكلوا في صمت. لم تكن سارة تشعر بالجوع على الإطلاق، وهكذا كان لا بد أن تستعين بالمياه الغازية لكي تبتلع كل لقمة.

ــ أنت صامتة للغاية ــ قال لها أوريارتيه فجأة ــ: استمري هكذا، سوف تتعرضين للمضايقات بشكل أقل.

لم تردّ سارة، متبعة هذه النصيحة الجديدة.

عندما أدرك أن القصة وصلت إلى نهايتها، لم لكن لدى ريينا رغبة في الاستمرار في الاستقصاء. ولم تعد لديه رغبة تقريبًا في الاستمرار في الاهتمام بالصحافة.

* * *

كان قد أمضى عشرة أيام في ((لاجونا فريا)) عندما عانى ريينا، للمرة الأولى، من قسوة العطش ونقص الماء. كان قد أكل شطائر لحم، نصف دستة اشتراها من هنديتين، كانتا قد ارتجلتا مكانًا للبيع بجانب البلدية. رغم أن مذاق الحشو من اللحم بدا له غارقًا في الدهون، ورغم أن الأطراف كانت تكشف عن حشو نيئ، فقد أكل بشراهة. بينما اللقمة الأخيرة تمر على حلقه، شعر بأول حرقة للحموضة. فتح الثلاجة، لكنه لم يعثر على شيء يشربه. في الحقيقة لم يجد أي شيءٍ، بالكاد الضوء الخافت الذي يشع من مصباح الثلاجة. كان يعرف أنه لا يجب أن ينتظر الكثير من الصنبور – بالفعل كنا قد ذكرنا التحشرج المتأوه والنقاط الترابية التي تنزل من الصنبور–، لكنه رغم هذا قام بالتجربة. ولا شيء. لا شيء على الإطلاق.

بصعوبة كبيرة خرج من المسكن بحثًا عن متجر أو كشك. لكنها كانت ساعة القيلولة. ساعة القيلولة ليست أفضل ساعة للسير في ((لاجونا فريا)). كل شيء كان مغلقًا. البيوت تعطي الانطباع بأنها مهجورة، مع الشمس التي تضرب بعنف، كأنما بسوط، على الجدران، على الشوارع الترابية، على الزرع الأصفر الذي يحيط بالقرية. شمس تضرب العالم بقسوة.

حرَّك ريينا فمه، طرقع بلسانه، وعبثًا حاول الحصول على شيء يخفف عنه، حتى وإن كانت نسمة هواء تنعش معدته. لكنه لم يحصل سوى على ذرات غبار، تغلغلت في فمه، من تراب يرفعه الريح، وأدَّت لزيادة عطشه.

طرق الأبواب وصفق بيديه في البلدية، في قسم الشرطة، في البيوت القليلة وفي الأكواخ القليلة التي زارها في تلك الأيام؛ أطلَّ على الفوهات المفتوحة لبضع آبار، والتي لم يتبقَّ بها سوى التراب. بل إنه وصل إلى ثيركيتو، خارج القرية تقريبًا. ومرة أخرى لم يحصل على شيء.

لدى عودته، رأى زوجين مسنَّيْن، رجلًا وامرأة، جالسين في ظل شجرة،

بجانب كوخ صغير. كانت تفصله عنهما قناة صغيرة مليئة بالأعشاب البرية. طلب منهما أن يتفضلا بدعوته على كوب ماء (نطق الكلمات بفم جاف كان جزءًا من العذاب أيضًا). لكن بدا أن المسنين لم يفهماه، أو أنهما لا يريدان أي تعامُل مع ريينا. نهضا دون أن ينظرا إليه، الرجل محركًا يده بحركة بدت مزيجًا من التحية والرفض، واختفيا داخل الكوخ.

لم يكن هناك أمل. كان وحيدًا، على وشك البكاء، لغبائه أكثر من العطش. حتى إنه فكَّر في إمكانية تناول بوله. ذات مرة رأى بعض الأفراد يقومون بهذا في التليفزيون كطقس علاجي. كما تذكر برنامجًا حيث كان شخص ما يشرح كيفية تبخير البول للحصول على ماء، لكنه لم يكن يتذكر تفاصيل الطريقة. بالإضافة إلى هذا، كانت كمية الماء التي يمكن الحصول عليها قليلة للغاية. على أية حال، يتعلق الأمر بفكرة عبثية. كان ريينا يعرف – ونحن معه– أنه سيشرب بوله. لكن ليس هذه المرة على الأقل.

هزَّ رأسه كأنما ينفض الفكرة، الفكرة والشمس، وذهب إلى المسكن بأمل أن يجد الآن بعض النقاط المتربة عندما يفتح الصنبور.

كان يجرُّ قدميه على الأرض، والضجيج – شيء يشبه "فراك– فراك– فراك"، صوت "فراك" مع كل خطوة– كان يزيد من شعوره بالانهيار. بقرب الانهيار. نشوة التجلي – أو ما يمكن أن نُطلق عليه تجليًا في تلك الحالة– جاءته أمام بيت ميلر، مالك المسكن. تذكر كلمات بيبو: ((العجوز ميلر غير موجود مُطلقًا)). توقَّف أمام الباب وفحصه. كان بابًا من الخشب، قديمًا، لم يَبْدُ له منيعًا. بحث في الشارع عن حجر جيد الحجم – تحقق، بالمرة، من أن التحركات المحسوبة، التفكير في احتمالية محددة، إن لم تكن تساعده على نسيان العطش، فعلى الأقل كانت تساعده على التخفيف منه–، حجر يمكنه أن يستخدمه في كسر القفل، أو فتح ثقب، إن تطلب الأمر. عندما اختار أحدها في النهاية – لكبر حجمه كان يؤذي يديه–، رفعه أمام الباب وصوَّب على المزلاج؛ لكن قبل أن ينفذ الضربة، شيء ما، حدس، شعور، جعله يجرب فتح الباب بدون عنف. وانفتح الباب. العطش، خفقان قلبه والرغبة في البكاء، لم يسمحوا له بالبقاء مذهولًا أمام ضربة الحظ الغريبة. كما لم يسمحوا له بتفحص البيت من الداخل بعد أن عبر من الباب، بينما لا زال الحجر الضخم

بين يديه. ولم يسمح له الحجر بأن يسير بشكل أسرع، كان يمشي كأنه (زومبي) في عجلة من أمره.

كانت هناك رائحة طعام فاسد في داخل البيت. ولأنه كان يبحث عن جهاز للماء، تأخر ريينا في الانتباه لوجود الثلاجة. ثلاجة كبيرة من ماركة (سيام). بل إنه جرَّب حظه مع الصنبور قبل فتح الثلاجة: لا شيء. عندما فتح الثلاجة في النهاية – حينئذ وضع الحجر فوق مائدة صغيرة– شعر بنفاذ رائحة الطعام الفاسد، الطعام المتعفن. وخمَّن أنها كانت بقايا دجاجة؛ كما كان هناك أيضًا صينية بها بيض ونصف ساندوتش من (البانيه)، كلها متعفنة. رغم أن الرائحة كانت تدفعه للقيء، فقد كتمه لكي يمكنه الإمساك بزجاجة الماء التي كانت تلمع بين الفضلات. كانت زجاجية، من تلك التي تُستخدم في تعبئة اللبن أو أحد أنواع الصلصة. أخرجها ريينا من الثلاجة في حركة سريعة لا تخلو من التقزز. أغلق الباب كمن يُغلق باب وحش في اللحظة الأخيرة – الرائحة كانت وحشية بالفعل–، ووضع الزجاجة فوق المائدة، بجانب الحجر.

نظر لها، فحص لون الماء (لم يَبْدُ شفافًا) وشمَّها. كانت تفوح برائحة العفن. تشجع ريينا وقام بالعدِّ حتى ثلاثة وشرب جرعة كبيرة، دون أن يدع الماء يمر على تجويف فمه، وهو أمر كان سيستمتع به لو كان الماء أفضل.

بعد أن تخلَّص من يأسه السابق – لم يكن مترعًا–، قام بتفقُّد بيت ميلر بدقة أكبر، بالزجاجة في يده. لم يكن هناك الكثير مما يلفت الانتباه: القليل من الأثاث، بعض الكتب، صحف ومجلات متراكمة في أركان مختلفة، ورأسا فهدين معلقَّان على حائط، كغنيمة أو كديكور. كما كان هناك الكثير من الغبار، كل شيء كان مغطى بالغبار.

جلس ريينا بين صفين من الصحف وأراح كوعه مثل ملاكم يسقط مُحطمًا في ركنه – يمكننا أن نقول الآن إن ريينا كان على الحلبة. انتظر لبرهة حتى يتخلص من الحر والخوف اللَّذَيْن شعر بهما، حتى رأى مظروفًا من الورق البني بجانبه، فوق الصحف. كان شعار منظمة VIDAS مطبوعًا على ظهر المظروف (نخلتان مائلتان، كل منهما إلى جانب، كانتا تُشكلان حرف V، ودفقة من الماء النقية الشفافة، المندفعة إلى أعلى كانت تشكل حرف I، وحرف D كان يتشكل من حيوان (المدرع)، درعه يشكل الجزء المنحني من

الحرف، وثلاثة أشجار – من الفصيلة البطمية أو الخروب، أو من أي شيء؟– كانت تشكل حرف A؛ وحرف S كان على هيئة دودة، رغم أنها قد تكون أفعى من جبل تشاكو.

فتح رينا المظروف وبحث داخله: صور، الكثير من الصور، لنساء عاريات. نساء شابات يقفن للتصوير بدون اقتناع، كأنما بخوف. ((والأكثر من هذا أن كلهن قبيحات))، فكَّر رينا. في الخلفية كان هناك جدار بلون أخضر كالتفاح، ينشع بالرطوبة، ذات الجدار في كل الصور. وبين الجمع توجد سارة أيضًا، قبيحة مثل النساء الأخريات. قال رينا لنفسه إن المصور كان رديئًا للغاية؛ كان يمكنه أن يقوم بعمل أفضل مع سارة.

لكن كانت هناك صورة تشذ عن بقية الصور: الناشطان البيئيان المفقودان، فوشيك وريينوسو، كانا يبتسمان للكاميرا، يرتديان زي المستكشفين، كأنهما في فيلم وثائقي. احتفظ رينا بتلك الصورة مع صورة سارة. قبل أن يخرج، قام بدورتين في البيت بزجاجة الماء في يده، منتظرًا، ربما، أن يعثر على مفاجأة أخرى، صورة أخرى، وثيقة ما. لكنه لم يبذل الكثير من الجهد في البحث. كان منهكًا.

فتح الباب، ووقف تحت المدخل. بينما ينظر إلى السماء، إلى شمس الظهيرة المتَّقدة، تجرَّع ما تبقى من الماء. أحس أنه يشرب دهون دجاج.

9

سار بيبو حول النار التي أشعلها الهندي لوخان والصبية الثلاثة. كان يلقي داخلها بالأفرع والجذوع الصغيرة التي يأتي بها الصبية. وكان بيبو يفكر أنه يجب تطهير أرواحهم بالنار.

ـ دون بيبو ـ خاطبه لوخان ـ: يجب أن ندفع المزيد من الهواء في هذا الجانب.

نعرف أن أحد الصبية اسمه داميان. الآخران يدعيان لوكاس ولويسيتو. بينما يروحون ويجيئون، من النار حتى سفح الجبل، من حيث كانوا يأتون بالأفرع الجافة التي يغذي بيبو النار بها، بينما كوكو، الدجاجة، تتبعهم مثل كلب.

ـ لا تفقدوا الدجاجة ـ صاح بهم بيبو.

في أثناء ذلك يقترب لوخان من النار، يقترب كثيرا حتى إنه يعطي الانطباع بأنه يريد أن يحرق نفسه، أن يذوب في النار. خلع الفانلة ذات الحمالات والبنطلون. بدا كأفعى تغير جلدها. ظل بالسروال فقط، ممسكًا بـ(شخشيخة) أخرى من الأظافر. نحافة جسده مثيرة للدهشة. الأضلاع بارزة كأنها من الحديد، وظهره ممتلئ بندوب ترجع للإهمال، للحياة السيئة، أكثر منها للمعاملة السيئة أو الشجار مع آخرين.

الصبية ـ داميان ولوكاس ولويسيتو ـ ذُهلوا عندما رأوه شبه عارٍ؛ خاصة عندما أصبحت عينا لوخان بيضاوين ورفع يديه إلى أعلى، بينما يهز الشخشيخة. ثبتت الدجاجة في مكانها أيضًا، كأنها قادرة على استيعاب موقف، يمكننا أن نصفه بأنه غريب.

ـ لا تفزعوا ـ قال لهم بيبو ـ: الآن سيأتي الجزء الأهم.

لكن رقص لوخان يصبح رتيبًا، يفقد المفاجأة. ولكي لا يحبط التوقعات التي يعتقد أنه أثارَها لدى الصبية الثلاثة، اقترح أن ينضموا جميعًا للرقصة، أن يخلعوا ملابسهم، أن يقتربوا من النار ويطلبوا ـ لا أحد يعرف بدقة أي شيء يطلبون، لكن عند هذه النقطة، لم يعد هذا مهمًّا ـ وأن يرقصوا حول النار. وهو، بيبو، يعطي مثلًا: يتعرَّى ويظل بالسروال، مثل لوخان، ويرتجل ما يشبه

رقصة المطر ويأخذ في الدندنة بأغنية تشكاريرا.

تردَّد الصبية في البداية. لكن يكفي أن يقرر أحدهم – لويسيتو، الذي رغم اسم التصغير الذي يحمله كان يعطى انطباعًا بأنه أكثرهم جرأة–، لكي يفقد الآخران خوفهما، الخجل، وأي شيء يمسك بلجامهما، وينضما للطقس. كوكو، التي لا تفارقهم، تتقدَّم للمشاركة وتجري وتلاحق الراقصين بقوقأة مثيرة للأعصاب.

وهكذا يرقص الجميع حول النار.

***

نادى بنديني على لايبا وجونثاجا وطلب منهما أن يساعداه في حمل جسد كاررانثا، الحمَّال. استجاب جونثاجا للنداء على الفور، أي أمر من بنديني يشكل جزءًا من عمله، وهو، جونثاجا، يؤدي عمله بدون تحفظات. لكن، بدون سبب واضح، كان الحمَّال يقع موقعًا حسنًا من لايبا.

–ماذا حدث له...؟– سأل بصوت جزع.

–وما أدراني؟– ردَّ بنديني. أوشك أن يضيف تعليقًا آخر، تقديم فرضية، لكن حينئذ يتذكر حنقه على لايبا، على عدم الاكتراث الذي يردّ به لايبا على اهتمامه به. جرَّب أن يكون حازمًا:

–احمله إلى هناك، لا تظل هكذا تهش الذباب.

–يا للمسكين!– قال لايبا، مُنفذًا أمر بنديني بشكل آلي، كأنه ليس أمرًا–، كان مُسليًا.

ريينا، بالببغاء في يده، الذي تابع أداء الشرطيين من أحد الجوانب، يفزع عندما يرى – الآن فقط يرى– جسد سارة، الذي كان هناك طوال الوقت، ملفوفًا في بطانية؛ ويفزع أكثر عندما يلاحظ كيف يقوم جونثاجا ولايبا بجرِّ جسد كاررانثا ليتركاه لصق سارة.

–انظُرْ يا لايبا– قال، صديقك شهواني.

لكن المزحة لم تثر ضحك أحد. بل زادت من نكد بنديني. لكي لا يتجرع غضبه، يوجه الشرطي اهتمامه نحو ريينا:

ـ أنت أيها الصحفي، أفق قليلًا وصوِّر هذا الأبله.

ـ لكن كاميرتي ليست معي.

ـ زي الفل... لايبا، أعط الكاميرا لهذا الأبله.

ـ يتم الآن نقل صور أخرى، صور الفتاة ـ شرح له لايبا ـ. التنزيل يستغرق وقتًا.

ـ لكن، هل أنت غبي! ائتِ بالكاميرا وبعد ذلك قم بنقل كل الصور.

جونثاجا هو من يذهب لإحضار الكاميرا. كان قد شعر بالفزع من صراخ بنديني. رغم أن بنديني ليس ممن يقومون بإساءة معاملة مرءوسيهم ـ ورأينا هذا من قبل، عقوباته تافهة للغاية، أقصاها أن يبدو أكثر اهتمامًا أو أقل اهتمامًا بهما، بلايبا وجونثاجا. ((مثل أبي))، يردُّ جونثاجا كلما سأله أحد عن بنديني، مُبالغًا في نقاط عديدة فيما يعنيه بنديني في حياته، في حياة جونثاجا.

على أية حال، من الواضح أن الريس ليس على ما يرام، وأن هذا ليس أفضل أيامه، وهكذا من الأفضل عدم معارضته. في نهاية الأمر كلنا نمر بيوم صعب ذات مرة، وبنديني ليس استثناءً.

جونثاجا المُقتنع بأنه الضابط الذي يتطلبه منصبه ورئيسه، يسرع في إحضار الكاميرا المتصلة بالكومبيوتر. وحينئذ يرى مجموعة من الصور التي تضيء الشاشة وتلفت انتباهه ـ وانتباه أي شخص يمكنه أن يجد صورًا كهذه. لأن جونثاجا يرى مجموعة مُعتبرة من الصور التي تظهر فيها سارة، سارة ذاتها، الميتة في البهو وفوق أحد ثدييها يد حمَّال ميت. تظهر في أوضاع عديدة مثيرة إلى حد ما، في ظاهرها تبدو إيروتيكية. إنها صور كثيرة، ويمضى وقتًا ليس بالقليل حتى تنتهي مجموعة صور سارة وتبدأ صور أخرى، الآن صور للقرية، ((لاجونا فريا))، يرى جونثاجا أماكن ووجوهًا معروفة، من العمدة وابنه في وليمة لحم مشوي، مرورًا بقاطني الأكواخ من السكان الأصليين، حتى المتاجر الألمانية بأصحابها ذوي الوجوه الممتلئة الوردية.

مرَّ بسرعة على تلك الصور التي كانت مجرد مناظر طبيعية، صور للجبل لا تهز فيه شعرة.

لكنه يسعد، تفر منه ابتسامة، عندما يرى نفسه وزميليه ـ بنديني ولايبا ـ

في مجموعة من الصور. رأى الصور باهتمام، خاصة تلك الصور التي يعتبر أنه يظهر فيها بشكل جيد. في صورة واحدة يقف الشرطيون الثلاثة أمام الكاميرا، الأخريات تبدو كأنها صُوِّرت خلسة. فكَّر جونثاجا أن الصورة التي وقفوا فيها أمام الكاميرا كانت قبيحة للغاية، كان الثلاثة جادين للغاية.

في النهاية فصل الكاميرا– مستوثقًا من حفظ الصور في الكومبيوتر، وعاد إلى البهو. فكَّر جونثاجا أن رينا رمى بنفسه إلى التهلكة بهذه الصور، سوف يقول له هذا.

رغم هذا، كان المشهد الذي وجده جونثاجا في البهو مُحبطًا للغاية: بنديني يبكي، بحرقة على كتف لايبا. ((لا أستطيع أكثر من هذا))، قال وسط نحيبه، قاله أكثر من مرة: ((لا أستطيع أكثر من هذا، لا أستطيع أكثر من هذا)). أثار المشهد في جونثاجا مشاعر متضاربة، لكن أكثرها وضوحًا – بالنسبة لنا، نحن الذين نرى كل شيء من بعيد– هي الغيرة: هو أيضًا، جونثاجا، أراد أن ينضم لعناق زميليه. حتى إنه فكَّر أنه يجب عليه الانضمام. لكن حينئذ يرى رينا، ساكنًا على جانب، ومال زال الببغاء الجريح بين يديه، ويتماسك جونثاجا.

ويقرر أنه من الأفضل الانتظار قليلًا حتى يتكلم عن الصور.

10

ـ حقيقةً إنها صورة بشعة ـ قال إيبانيث عندما عرض عليه ريينا صورة فوشيك وريينوسو التي وجدها في بيت ميلر ـ. وهذا غريب ـ أضاف ـ، لأن الألماني ذاك يعطي الانطباع بأنه صاحب ذوق جيد.

لكن لم يكن هذا ما يبحث عنه ريينا بعرض الصورة على العمدة.

ـ ما يقلقني هو بيبو ـ واصل إيبانيث ـ: لا أرى أن ابني قد تغير في شيء منذ وجودك هنا.

بيبو لم يتغير في أي شيء، ـ هذا حقيقي بالفعل، لكن ريينا أيضًا لم يكن مُهتمًّا بهذا. بالإضافة إلى هذا، كان يبدو أن بيبو سعيد هكذا، فتى غريب الأطوار.

ـ لكن انظُرْ للصورة جيدًا. حاول ريينا الإصرار. لم يكن هناك أمل، كان إيبانيث مُهتمًّا بأمر آخر:

ـ أولًا وقبل أي شيء ـ أخذ يقول ـ: نحن أصدقاء، أتركك على راحتك في مكتبي، تقريبًا أئتمنك على مستقبل ابني، وكل ما تريد. لكنني أطلب منك شيئا: لا تخاطبني بدون ألقاب. لا تعاملني دون احترام. كونك قادمًا من مدينة (ريسيدينثيا) وأنا وُلدت في هذه القرية التافهة، فهذا لا يجعلك أفضل مني...

حاول ريينا أن يُقاطعه، لكن العمدة رفع يده ليوقفه بحزم، فيما يشبه تحية نازية.

ـ ثانيًا، لكنه ليس أقل أهمية: ميلر، ما المشكلة مع ميلر. إنه رجل طيب، وصورتك هذه ليست سوى خطأ.

ـ لكن بها شعار المنظمة، لهذا...

ـ سأحدد لك نقطة ثالثة، بما أنك تتحدث عن المنظمة. إنك تهتم بها أكثر من اللازم. انظُرْ لوجهيهما الساذجين ـ رفع إيبانيث الصورة، لكي يرى ريينا وجهي الناشطين البيئيين مرة أخرى. ونعم، كانا وجهين طيبين، أي شخص يمكنه أن يسخر منهما ـ. هل تعرف ماذا كانا يريدان؟ أن تتوقف

المنظمة عن بيع أجهزة المياه. العودة لاستخدام الآبار، لأن الآبار صحية أكثر. أبناء العاهرة يعيشون جيدًا في بوينوس أيرس ويريدون لك أن تعود للآبار مرة أخرى. فليتفقوا...

ــ لكن، في واقع الأمر، من يُدير المُنظمة؟ــ سأل ريينا.

ــ وما أدراني؟ ولماذا تهتم بهذا؟ هذان ــ وضع إيبانيث صورة الناشطين البيئيين أمام أنف ريينا تقريبًا ــ، ربما يكون الهنود قد أكلوهما، أو أكلهما أحد النمور التي يهتمون بأمرها كثيرًا. لم يكونا يتوقفان عن المضايقة، يعيشان حياة فارغة، وهكذا انتهى بهما الأمر.

فقد ريينا الرغبة في الكلام. خلال لحظة، بعد أن عثر على الصور في بيت ميلر، شعر بالأمل، شعر أنه صحفي حقيقي. فكَّر في إمكانية قيامه بنوع من الاستقصاء، أنه يمكن أن يُدهش زملاءه في الصحيفة. لكن العمدة كان يرهبه. بضربة واحدة هدم أحلامه. بصورة الناشطين البيئيين في عقله، فكَّر في أشخاص آخرين يمكن أن يستشيرهم. لم يخطر أي شخص على باله. لم تعد لديه رغبة حقيقية في الكلام مع أحد.

ــ الشيء الوحيد الحقيقي ــ ختم إيبانيث ــ، أنك لا تهتم بأمر بيبو.

ولكي يدعم الفكرة ــ وربما لأي سبب ــ انحنى العمدة على مكتبه وبدأ في النحيب: ((أنت لا تساعدني، أعطيك كل شيء، أعطيك ابني، وأنت لا تفعل أي شيء)).

خرج ريينا من مبنى البلدية حائرًا لكن من جانب آخر بيقين ــ وإن لم يكن يقينًا، فقد كان حدسًا ــ أن العمدة يعرف عن الناشطين البيئيين المفقودين أكثر مما يُعلن. والأكثر من هذا، فكَّر بخوف، أن ذلك الرجل متورط في الموضوع. قام بمحاولة لربط الخيوط، قام بالجمع بين ستة أو سبعة أسماء تعلَّمها منذ وصوله إلى ((لاجونا فريا))، لكن لم يحصل على أكثر من هذا: أسماء تجمع بينها قرية.

قال لنفسه: ((الحَرّ لا يدع المرء يفكر)).

بعد ذلك دخل متجرًا واشترى كرتونة مياه معدنية، ست زجاجات في المجمل. من مكانه على باب المتجر أراد حساب الأمتار التي تفصله عن مسكنه، لكنه

لم يستطع أيضًا: ((اللعنة، الحر اللعين)) فكّر.

رفع الكرتونة وبدأ في السير، نعلاه يزحفان على الشوارع الترابية. في وسط الطريق توقّف وترك الكرتونة على الأرض ليلتقط أنفاسه قبل المواصلة. تنفس عميقًا بيديه على خصره، وتذكر فجأة صورة الناشطين البيئيين: تركها لإيبانيث. سار بقية الطريق قائلًا لنفسه إنه أبله، ومُفكرًا في الكلمات التي يمكن أن يستخدمها لكي يطلب من العمدة أن يُعيد له الصورة. لكن في النهاية، وكما هو مُتوقع، لن يطلب شيئًا.

* * *

تذكر رحلة التخرج، إلى باريلوتشه، قبل سنوات كثيرة. كانت عشرة أيام، ربما أقل قليلًا. أيًّا ما كانت، أمضاها في شرب الكحول وتدخين الماريجوانا. ظلت باريلوتشه في ذاكرته كبقعة عابرة، كبقعة تنتقل من اللون الوردي العتيق إلى الفوشيا. الفوشيا يرجع للصور الليلية، بارات وكاباريهات المدينة، كل شيء يتحرك على إيقاع كاميرا بطيئة وممتعة.

لكن أكثر ما يتذكره من باريلوتشه كانت زميلته (روثيو). كان لنا جميعًا مثل هذا النوع من الزميلات في لحظة ما من حياتنا، النوع الفوضوي لكي نَصِفهن بشكل ما، على استعداد لقبول ما قد لا تقبله فتيات أخريات. بالإضافة إلى هذا، كانت روثيو فتاة جذابة، وجهها جميل، ثديان جيدان.

كان الجميع، في لحظات الإفاقة النادرة، أو حتى مع دخان المخدرات، يُعلِّقون على الكم غير المعهود من الخبرات – جنسية أساسًا– التي كانت روثيو تكتسبها في باريلوتشه. بغض النظر عن السن، الرجال والنساء ثرثارون وغيورون دائمًا ممن يجرءون على الاستمتاع أكثر من الآخرين.

على أية حال، الليلة الأخرى من رحلة التخرج كانت تقترب، وعلى العكس من روثيو، لم يقم إيميليو ريينا وثلاثة زملاء آخرين بتجربة أي شيء. جعلوهم يعتقدون أن باريلوتشه عبارة عن فردوس جنسي، أن النساء سيستسلمن لهم بدون تفكير. لكن من المعروف: كما يوجد رجال لديهم قدرة خاصة على اجتذاب النساء في أي وقت وأي مكان، يوجد آخرون لا يتمتعون بهذه الموهبة، ولا هنا، ولا هناك، ولا في أي مكان. يجب عليهم أن يجتهدوا

كثيرًا. أراد ريينا وزملاؤه الثلاثة أن يوفروا على أنفسهم الجهد.

كان الجو يساعد على هذا، والملل أيضًا – في ذلك الحين كان أسبوع من تناول المخدرات والخمور قد أصبح شيئا رتيبًا–. دعوا روثيو إلى الذهاب معهم إلى غرفة بالفندق الذي كانوا يقيمون به، ورغم أن روثيو، كما يمكننا أن نخمن، لم تكن ترى مشكلة في الجنس الجماعي والعديد من الممارسات الجنسية الأخرى، فقد أدركت أن أربعة شباب بدون خبرة، يشعرون بالملل وسكارى، كانوا فكرة سيئة.

قالت لا، شكرًا، إن لديها ترتيبات أخرى. لكن يمكن أن تكون قد قالت هذا بدون الاقتناع الكافي، وربما – وهو الأكثر ترجيحًا– أن ريينا والثلاثة الآخرين لم يكونوا مهتمين بالترتيبات الأخرى التي يمكن لروثيو أن تكون قد خططت لها. وهكذا أخذوا يحملونها، في البداية بنعومة، كفرسان، لكن بعد قليل، كانوا يدفعونها تقريبًا، محيطين بها بأيديهم، وتتزايد ملامستهم لجسدها باطراد.

وداخل الحجرة، حاولت روثيو أن تفرض شيئًا من النظام، ألَّا يتصرف الفتيان بفظاظة. قبَّلت أحدهم، الذي كان يعجبها أكثر، بينما كان الآخرون يتقدون، ويعوون.

شاعرًا بالنشوة، ذهب ريينا للإتيان بالمزيد من البيرة. إن كانوا سيمضون الليلة –كما هو متوقع–، بدون الخروج من الغرفة، فسوف يحتاجون للمزيد من الكحول. وأيضًا شيء من الطعام، فكَّر، ولهذا اشترى سندوتشات وبضعة ألواح شوكولاتة باتاجونيا، أفضل شوكولاتة في العالم، حسب صاحب مصنع شوكولاتة زاروه خلال تلك الأيام.

عندما عاد، كان زملاؤه قد خطوا خطوات عملاقة في علاقتهم بروثيو: كانت عارية تمامًا، على أربع. أحدهم كان يهاجمها من الخلف وآخر من الأمام، كأنما يدفعان رأس روثيو لكي تمارس الجنس الفموي معه.

إن كان الموقف قد بدا له عنيفًا إلى حد كبير – خاصة عندما رأى الزميل الذي لم يشارك جانبًا، بينما يقوم بالاستمناء بحماس، كأنما ينتظر دوره– شعر ريينا بهياج فوري. فتح علبة بيرة وشرب نصفها على جرعة واحدة. كان

ينظر للمشهد بترقب، لكن قبل أي شيء كان ينظر بانبهار. إن نظرنا له جيدًا، كان فيلمًا بورنوجرافيًّا رديئًا. لم يكن يصدر عن جسد روثيو أي صوت بخلاف ما يمكن أن يصدر عن الاحتكاك ودفعات الفتيين اللذين كانا، في ذلك الوقت، يقذفان عليها بشكل فظ.

عندما جاء دوره، وقف ريينا عاريًا أمام فم روثيو. نظرت له، بينما ما زالت عارية وعلى أربع، وطلبت منه برهة لتستريح. ((انتظرني قليلًا))، قالت له، ومدَّت ذراعها لتمسك بعلبة بيرة. لكن رفيق ريينا، الذي لم يفعل أي شيء حتى تلك اللحظة سوى الاستمناء، لم ينتظر. أخذ روثيو من الخلف، وبدفعتين جعلها تُفلت العلبة من يدها. أراد ريينا تقليد فظاظة زميله، وأمسك بفكها، مُستخدمًا الإبهام والسبابة في إحدى يديه ككلَّابة. اعترضت روثيو، قالت إنها مُتعبة، إن هذا لم يكن جيدًا. ((ما هو الذي ليس جيدًا؟))، سألها ريينا، وقرَّب فمه من فمها كأنما ليُقبلها. لكن روثيو لم تكن تريد قبلات. لم تكن تريد أي شيء، كانت تشعر بالضجر من هؤلاء الأربعة الأغبياء عديمي النفع. عندما أصبح وجه ريينا على مبعدة سنتيمترات قليلة من وجهها، قامت بجهد، جهد أخير، وطبعت صفعة معتبرة على فمه.

فتح ريينا عينيه كما كان سيفعل أي شخص يتلقَّى ضربة شبيهة: عينان مثل طبقين. ((أوباااا))، قال زملاؤه، الاثنان اللذان حققا طموحاتهما في باريلوتشه، والآخر الذي كان يمسك روثيو من ردفيها. لم يعجبه تعليق زملائه. أو ربما تكون الصفعة قد أعجبته وأيقظت فيه فكرة ما شبه شاذة. لأن ريينا استغرق ثانية، كأنما ليفيق، وردَّ الصفعة. ردها مرة بظهر يده، والتالية بكف ذات اليد؛ وفعل هذا مرة، مرتين، وكل مرة كان يعجبه أكثر وأكثر، والهياج الذي يشعر به كان شيئًا من عالم آخر. كانت روثيو تبدو كدمية، الفم شبه مغلق، والوجنتان محمرتان، بينما تدير وجهها من جانب لآخر، كأنما تُوجِّه الصفعات. وهكذا قذف ريينا منيه.

لم تقل روثيو شيئًا، ولا زملاؤه. أمضى ريينا بقية الليلة منطويًا في الفراش المجاور، ناظرًا كيف تقوم روثيو وزملاؤه بتجريب أوضاع جنسية مختلفة.

بعد سنوات، عندما يشق عليه الأمر مع امرأة، كان ريينا يُغلق عينيه بقوة ويفكِّر فقط في وجه روثيو، في فمها، في وجنتيها تتحركان من جانب لآخر،

على إيقاع الصفعات. أحيانًا كان هذا يساعده.

11

نتنفس عميقًا، مرة أخرى. نحن (على آخرنا) من المشاكل، والجو لا يساعد. بنديني يدرك هذا. لذلك يجفف دموعه، دموعه التي تركها تسقط على كتفي لايبا ويبدأ في العمل.

– حسنا – قال، وأشار بإصبعه إلى الجثتين الممددتين في البهو– لدينا هنا القاتل والقتيلة.

– لكن هذا الرجل ليس سوى مجرد مسكين بائس – يريد ريينا أن يتدخل لصالح كاررانثا.

– قاتل – كرَّر بنديني، بينما يفصل بين مقاطع كلمة ((قاتل)): ق- ـ ـا تـــــــــل–، ولتأخذ صورًا أيها الصحفي الحقير، من أجل هذا ندفع لك.

في الحقيقة، لا يحصل ريينا على راتب من أجل هذا. لا يمكن لأي شخص أن يقول – بما أننا نتكلم عن الموضوع– من أجل ماذا يحصل ريينا على راتبه. ومن جانب آخر، ما يحصل عليه لا تدفعه الشرطة. من يدفع له إذن؟ لأنهم نسوا أمره في الجريدة قبل شهر. كأنما استراحوا منه. على أية حال، لا زال السؤال هو: ماذا يفعل ريينا؟ ماذا يفعل في ((لاجونا فريا)) منذ أكثر من ثلاثة أشهر؟ لماذا لا يعود إلى ريسيدنثيا؟ إن كان يعيش هناك في رفاهية أكبر. في نهاية الأمر....

الواقع أنه هناك: قام بإفساح مكان في حقيبته لكي يضع ببغاءه الجريح بعناية ويأخذ في التصوير. صور يأخذها بكاميرته، من أجل الشرطة.

– اذهب وأعد ماتيه– أمر بنديني لايبا. لكن لايبا لا يتحرك، ولا حتى ينظر للمأمور، كان جامدًا، وعلى العكس، لا يتوقف عن النظر لجثة كاررانثا.

– لقد جئنا به اليوم في عربة الدورية – قال هامسًا– والآن...

نواح لايبا ينتقل لبنديني مُجددًا، ويقوم هذا بمحاولة لكبح البكاء. لكن هباء. الآن ينتحب الاثنان، لايبا وبنديني، أمام الجثتين. يبكيان بشهقات. جونثاجا، الذي كان ينظر لهما طوال الوقت متخذًا جانبًا، انطلق وحاول الانضمام للبكاء.

– ابتعد من هنا، يا ثقيل– أزاحه بنديني بعيدًا، والآن يستنشق الهواء

بعمق، كأنما يريد ابتلاع كل هواء ((لاجونا فريا))، ويعد لوضعه كرجل حاسم. أي أنه أصبح الضابط بنديني من جديد.

شعر جونثاجا بالضيق من الازدراء. ((فليطلب خدمات من أمه))، فكَّر شاعرًا بالإهانة. ورغم هذا، دخل إلى القسم وجهزَّ الأدوات كأنما لإعداد مشروب الماتيه.

كان ريينا الآن هو الذي قد أصبح متوترًا. بعيدًا عن التماسك الذي أبداه في الصباح بينما كان يُصور جثة سارة، كان كاررانثا – جثة كاررانثا– تسبب له القيء الآن. جشأة، اثنتان، محاولة لإيقاف ما يأتي من المعدة حتى الفم، جشأة ثالثة قوية، ولم يتحمَّل أكثر من هذا: تقيأ مثل سكران. لم يتقيأ – لحسن الحظ– على أرض البهو، وهو ما سيضايق بنديني، وإنما كان لديه التقدير الجيد والتصرف السريع ليتحرك بضعة أمتار ويتقيأ على الأرض الترابية: ينتشر القيء كانفجار أبيض مكتوم. بلغم خالص.

الآن يضحك الشرطيون. ينتهزوا وعكة ريينا ليتحرروا من حزنهم العجيب أمام الجثتين. وهو ما يساوي لحظة الترويح عن النفس في الجنازات، التي ينتهزها الأقارب ليضحكوا على أي شيء، مهما كان تافهًا، قبل أن يعودوا للبكاء والحزن.

لكن بنديني ولايبا لا يعودان لهذه الحالة مجددًا. على الأقل ليس هذه المرة. عندما يطلب منهما ريينا القليل من الماء لينظف بقايا القيء، يضحكان بقوة أكبر، كأنما لا يوجد شيء أكثر إثارة للضحك في العالم من رجل يتساقط منه البلغم. رغم أننا نعترف بوجود شيء ما مضحك في هذا الأمر.

بالماء الساخن الذي أحضره جونثاجا من أجل الماتيه، تغرغر بضعة مرات، نظَّف فمه وخفَّف من اللذعة القبيحة التي يخلفها التقيؤ المصحوب بالبلغم. والأكثر من هذا، الآن يفرز العرق كالتيس.

– هيا يا صحفي – ألحَّ عليه بنديني–، انتهِ من هذه الصور، يجب أن نذهب لإحضار الحمقى.

بعد أن استعاد تماسكه، صوَّب ريينا الكاميرا على جثة كاررانثا. في هذه المرة لم يخبره أحد أي صور يجب أن يأخذ، أي أجزاء من الجسد، أي

أوضاع. وهكذا يأخذ الصور كما يعِنُّ له. ينظر بطرف عينه إلى حقيبته، حيث يستريح الببغاء مثل مريض في غرفة مستشفى. لكي لا يفكِّر كثيرًا في كاررانثا، وفي الجثة الجديدة، لكن ذات الرائحة الكريهة للغاية للحمَّال، ينتهز اللحظة، وبين صورة وأخرى يفكر في أسماء مُحتملة للببغاء.

كان الشرطيون قد ذهبوا إلى الحمام، أعدَّوا (تيرموس) آخر بماء ساخن من أجل الماتيه التالي، وأصبحوا جاهزين للخروج.

ــ حسنًا، هذه الصور تكفي ــ قال بنديني لريينا ــ، تعال لأنك ستأتي معنا.

((فريدا، روسا، أورورا...)) فكَّر ريينا، حتى قرَّر: كوتو، هذا الاسم يعجبه. هكذا سيسمي ببغاءه.

* * *

بيبو مُستلقٍ على ظهره، الرأس مستند على ملابسه المكوَّمة مثل ملابس لوخان وملابس الصبية الثلاثة. لا أحد يتكلم، لكن على الأقل لوخان يأتي بغمغمة متكررة، ما يشبه تعويذة، تزداد وتنخفض حدَّتها، بالعينين زائغتين والأجفان مرتعشة.

لم يتبقَّ من النار سوى دخان خفيف.

أول من ينهض هو لويسيتو، الذي جلس ونظر حوله. دخان النار تركه شبه مغيب. مرَّ بيده على جسده ليمسح العرق ولإزالة الأوراق والأفرع الصغيرة التي التصقت بجسمه. نظر إلى صديقيه، إلى لوكاس وداميان، اللذين كانت نظرتاهما ثابتتين على نقطة مجهولة. وأيضا كوكو، الدجاجة، كانت تستريح تحت قدمي بيبو.

فجأة، من بعيد تنهض عاصفة ترابية. فرك لويسيتو عينيه ليرى بوضوح أكثر. فزع في البداية؛ لأنه لم يفهم ماهية هذين الضوءين اللذين يظهران في السحابة الترابية. تبدوان عيني وحش. لكن بعد برهة يرى كل شيء بوضوح أكبر ويهدأ: إنهما مصباحا سيارة. مصباحا عربة الدورية الخاصة ب-))لاجونا فريا))، لكي نكون أكثر دقة.

ما إن تتوقف السيارة حتى ينزل منها، في ذات الوقت، بنديني، لايبا، جونثاجا وريينا.

ـ ماذا كنتم تفعلون هنا؟ـ أكثر منه غَضبًا، كان بنديني يشعر بالضجر.

نهض بيبو، وذهب متمايلًا للقاء رجال الشرطة. لا زال بسرواله، وابتسامة ضخمة تغطي وجهه. تراجع الشرطيون، كأن بيبو يمكن أن ينقل لهم مرضًا ما.

ـ انظر لهذا الرجل يا (ريس) ـ قال جونثاجاـ: يجب أن يدخل السجن، وهناك سيفيق.

في أثناء ذلك، يقرفص لايبا أمام لويسيتو. حدَّثه همسا، كأنما يحدِّث رضيعًا.

ـ هل أنت بخير؟ هل يؤلمك أي شيء.

لم يردّ لويسيتو. يبتسم فقط.

إلى جانب، ينحني بيبو ليرفع الدجاجة، وعندما تصبح على ذراعيه يُطيح بها بنديني بضربة. ورغم هذا، لا تختفي ابتسامة بيبو، كأنها مرسومة على وجهه.

لايبا، المحبط لعدم اكتراث لويسيتو، يتجه الآن إلى لوخان. حاول أن يرفعه ممسكًا بإبطيه، لكن ما إن يلمسه حتى ينتفض الهندي متشنجًا. ينتفض على الأرض، يتقوس جسمه النحيل، يُشكِّل دوامة من الغبار. فزع لايبا وتراجع خطوة إلى الخلف. حينئذ يأتي جونثاجا لمساعدته، والآن، بين الاثنين، يمكنهما رفع الهندي، الذي لم يتوقف عن الانتفاض على أية حال.

في وسط هياج لوخان البالغ، تنطبع إحدى يديه على وجه لايبا. على الأنف تحديدًا، رغم أنه يغطيه بكلتا يديه، لم يمكن للايبا أن يمنع تدفق الدم.

ربما بسبب الضيق، ربما دفاعًا عن لايبا، أو لمجرد رد الفعل فقط، يخرج بنديني مسدسه (الميري) ويطلق النار. الطلقة لا تقضي فقط على تشنجات لوخان، وإنما تترك له نقطة لونها ما بين الأحمر والأسود في جبهته. سقط الهندي مائلًا، مثل دمية مكسورة. على مبعدة بضعة أمتار كان بنديني يقف بالمسدس في يده، لكي يُثبت، إن كان هناك شك لدى أي شخص، أن تصويبه جيد دائمًا.

فيما عدا هذا، دويُّ الرصاصة جعل الجميع ينحنون، وخلال ثانية بدا أن لهم حدبات.

الآن يمكن أن يقوم لايبا وجونثاجا برفع جسد لوخان بدون مشاكل – أحدهما من الإبطين والآخر من الساقين– ويحملانه إلى عربة الدورية.

رينا – صاح بنديني– ساعدهما وافتح الصندوق. لكن رينا مذهول. الرصاصة المفاجئة، جسد لوخان بينما يسقط كدمية، لم يسمحا له بالتصرف على الفور. كان على بنديني أن يكرِّر الأمر.

– هيا يا صحفي، اللعنة.

ما إن تحقق من أن رينا قد انصاع له وفتح الصندوق اللعين، حتى استدار بنديني إلى بيبو وطلب منه أن يتحرك. يضايقه، من بين أشياء أخرى كثيرة، أن يرى الدجاجة بين ذراعي بيبو مرة أخرى، بينما يداعب رأسها.

((لا فائدة))، فكَّر بنديني واختار الطريق السهل: اقترب من لويسيتو، طبع ابتسامة على وجهه، كأنما لكي لا يفزع الصبي، ورفعه. لم يَبْدُ لويسيتو فزعًا: عانق الشرطي بقوة، بذراعيه وساقيه. أعجب بنديني بشعور أن الفتى يثق به، على نحو ما يشعر بالأمان معه.

جونثاجا، الذي انتهى مع لايبا من إدخال جسد لوخان في صندوق عربة الدورية، سأل بنديني ماذا يجب أن يفعلوا، إن كان من الضروري أن يبحثوا عن الصبية. وكما أن بنديني لا يرد عليه، يفترض أن الإجابة هي نعم.

–هيا – قال للايبا–: يجب أن نحضر هذين الأحمقين.

باستثناء رينا، الذي كان ساكنًا بجوار العربة، بعد برهة كان كل منهم يحمل صبيًّا بين ذراعيه – أو دجاجة في حالة بيبو–. شعر رينا أنه زائد عن الحاجة، أن مساعدته قليلة للغاية. أكَّد بنديني على هذا.

– يا صحفي، اللعنة عليك وعلى أمك: لا تفعل شيئا سوى المضايقة.

كيفما اتفق، أخذوا يصعدون إلى العربة. خلال لحظة يخشى رينا أن يتركوه هناك، لكن ما إن استقر كل منهم في مكانه، حتى فسح له لايبا مكانًا في المقعد الخلفي. شغَّل بنديني السيارة وأطلق بيبو صرخة جعلت السيارة تبدو أكثر امتلاءً بالناس وأيضًا أكثر جلبة.

12

آه، الشعر!

كم هو عنيد، كم هو متمرد.

ماذا كنا سنصبح،

بدون الشعر؟

الشعر

شديد السذاجة، شديد الحمق...

كتب ريينا هذا: حتى ذلك الصباح، كانت هذه الأشعار هي الشيء الوحيد الذي أمكنه أن يكتبه بعد شهر من إقامته في ((لاجونا فريا)). شيء مُقزز، فكَّر. على أية حال سوف يقرؤه على بيبو.

كانا سيبدءان الورشة الأدبية. قبل ساعتين من وصول بيبو، كان ريينا قد أدرك عبثية الموقف. بداية، لم يكن لديه كتب للرجوع إليها، وبالإضافة إلى هذا، كان ما قرأه هو ذاته قليلًا للغاية؛ وفي النهاية، كان شاعرًا رديئًا للغاية. قالوا له هذا في بضع ورش أدبية. دائمًا ما قالوا له، إنه قبل البدء في الكتابة، يجب أن يقرأ قليلًا.

لكن الآن، مع بيبو، توجد خمسمائة بيزو. كان يعرف ثلاثًا أو أربع عبارات يتذكرها من الورش الأدبية. عبارات لا يمكن أن تفشل. يمكنه أن يستخدمها لإذابة الجليد وبعد ذلك يرتجل. أفضل شيء سؤال صاحب الشأن – بيبو في هذه الحالة– أي نوع من الشعر يعجبه. عامةً، في تلك الحالات، يذكر الناس أسماء مؤلفين، على أقصى حد يمكن أن يقول أحدهم: ((أحب القصائد التي تتحدَّث عن الحب)) أو ((القصائد التي تتحدَّث عن الحياة)). لكن بيبو أربكه:

– أحب أغاني تشكاريرا– قال له.

هذا ليس شعرًا– ردَّ ريينا، في ردِّ فعل سريع أكثر منه رأيًا.

– وما هو؟

حينئذ لم يعرف ريينا بمَ يجيب. خرج من المأزق بشكر تلميذه على إحضاره

المعجنات المشوية.

– تكون لذيذة للغاية مع الماتيه.

– فلنعد ماتيه إذن.

رغم هذا، لم يكن ريينا يفهم كيف يمكن للناس أن يقبلوا على تناول كل هذا الماتيه في مثل هذا الحر. منذ جاء إلى «لاجونا فريا» لم يدعُه أي شخص على مشروب بارد، ولا حتى ماتيه بارد. دائمًا ماتيه ساخن.

– لكن لا يوجد لديَّ وعاء لتناول الماتيه– قال بعد أن وضع الماء على النار. كان يحزنه أن يستهلك مخزونه من الماء في أشياء لا يحبها.

– أنا أحضرت وعاءً، وأيضًا الأعشاب. تخيلت أنك لا تمتلك. وبالمرة أتركهما لك، الأعشاب والوعاء، وهكذا يظلان هنا من أجل الدروس القادمة.

ابتسم له ريينا، لكنها كانت ابتسامة مريرة. حقيقة، لم يكن يرغب في تناول ماتيه. ولتغيير الموضوع، سأل بيبو عن الناشطين البيئيين، إن كان يعرفهما.

– أبلهان. يعتقدان أنهما يمكن أن يأتيا هنا ويستحوذا على كل شيء.

– حسنًا، لكن ما يهم هو معرفة ما حدث لهما.

– وفيمَ يعنيني ما حدث لهما؟ ربما يكون الهنود قد أمسكوا بهما.

بينما كان يتناول الرشفة الأولى من الوعاء – رشفة حذرة، لكي لا يحرقه الماء الساخن–، خطر على باله أن يردَّ السؤال لبيبو:

– وبالنسبة لك – سأله– ما هو الشعر؟

– حسنــــــ...– كان الشيء الوحيد الذي حصل عليه كإجابة، لكنه كان «حسنــــــ...» مصحوبًا بإيماءات (العينان زائغتان، الذراعان مفتوحتان، كأنما ينتظر عناقًا)، وحدس ريينا أن بيبو كان يقول له بتلك الإيماءات أن الشعر هو كل شيء بالنسبة له.

– نعم، حسنًا، لكن إن كان عليك أن تصفه بكلمات...

– توجد أشياء لا تحتاج للكلمات.

شعر ريينا بالإحباط، لكنه أصر:

– قم بمحاولة، هيا...

أغلق بيبو عينيه بقوة، لكي يجعل واضحًا المجهود الذي يقوم به، وبعد أن ظل لبضع ثوان هكذا – ثوان انتهزها ريينا لكي ينظر إلى تلميذه بتقزز–، أخذ يقول:

– بالنسبة لي، الشعر هو ذلك الشيء الذي يوجد داخل المرء...

– أوففف – قاطعه ريينا– هذا مُستهلك تمامًا.

– ... دعني أُكمل... كنت أقول لك: الشعر هو لون السماء في المساء، هو الماء، هو كوب ماء بارد... لا، ليس كوبًا، إنه دلو من الماء البارد، وهو وجه أمي يوم ماتت، وهو دموع أبي بينما يبكي على أمي... وهو أمك اللعينة. ما أدراني! يُفترض أنني أدفع لك لكي تقول لي ما هي الأشياء.

فجأةً، أصبح بيبو على وشك البكاء.

– لا يا رجل، توقَّف – أراد ريينا أن يهدئه– إن هذا وسيلة فقط، لكي ندخل إلى الموضوع.

– وسيلة حقيرة، قل لي لماذا لا يمكننا أن نكتب تشكاريرا.

لم يردّ ريينا. ماذا يعرف عن تشكاريرا؟ بل، ماذا يعرف عن الشعر؟

*** * ***

هل كان ريينا يعشق سارة؟ لا يمكن التفكير في هذا. بالكاد كان يشعر نحوها بما يمكن أن نُطلق عليه، عرفانًا. عرفان كبير، إن أردتم أن تعتبروه هكذا.. ربما بعد ذلك يمكننا أن نعود للحديث عن هذا، لكن، عندما تخيَّل نفسه يمشي بجوار سارة في شوارع ريسيدنثيا، ممسكًا بيدها، نحَّى ريينا جانبًا فكرة أن يصحبها معه. كان يشعر بالخجل منها: ماذا يمكن أن يفكر معارفه عندما يرونه مع امرأة مثل هذه؟ كانا شخصين مختلفين، سارة وهو. ((لاجونا فريا)) هي الشيء الوحيد الذي يجمع بينهما. بالإضافة إلى هذا، كانت سارة ذاتها هي من وضعت موانع مُحددة:

– لا يجب عليَّ أن أخرج من هنا– قالت له، مشيرةً بشكل خاص إلى ((ثيركيتو)) وليس فقط إلى ((لاجونا فريا)).

وهكذا انتبه ريينا إلى أنه لم يرَ سارة مُطلقًا خارج ذلك الماخور، وحتى بينما تسير في القرية.

– هل تمضين اليوم بأكمله هنا؟– سألها، شبه مندهش.

– إن كانت تلك القرية بشعة... هنا على الأقل يوجد هواء مُكيف...

في هذا الشأن كانت سارة مُحقّة. لماذا يجب أن يخرج المرء، إن لم يكن قادرًا على التنفس في الخارج، في الشارع، رغم أن كلمة ((شارع)) تعتبر مُصطلحًا كبيرًا إلى حدٍّ ما بالنسبة لـ((لاجونا فريا)).

في ((ثيركيتو)) يوجد هواء، وأيضًا هناك سارة. ساعةً كل ليلة مع سارة، أحيانًا ساعتين، وإن أمكن ساعتين ونصف. ماذا يمكن أن يطلب أكثر من هذا. أن تسير الأمور، بالطبع. واستطاعت سارة أن تجعلها تسير، بعد ليال كثيرة أمضيا فيها الوقت متلاصقين، نائمين في وضع الملعقة.

فكَّر ريينا ((يتعلَّق الأمر بعدم التفكير)). ((الاسترخاء، عدم التفكير في شيء. على أقصى حد التفكير في العمل. في هذين الناشطين البيئيين اللذين اختفيا هنا. أين؟ في الجبل. أمسك بهما الهنود. يستخدمهما الهنود في العمل. أكلهما الصيادون أو (النسانيس الصغيرة)، بقوا ليعيشوا مع القرود. ومع ميلر، الألماني... نعم، نعم، كلهم عاهرون...)).

وعندما أراد التذكر، كان قضيبه صلبًا للغاية، كما يجده كل صباح عندما يستيقظ. انتصابه اليومي الوحيد، الصباحي، انتصاب يجعله يرغب في الجري بحثًا عن امرأة، أي امرأة، لكي يبرهن، ليس للنساء فقط، وإنما للعالم كله، أنه يستطيع، أنه لا زال قادرًا.

لكن باستثناء سارة، التي كانت تمضي حياتها داخل ثيركيتو، من الفراش إلى صالة الطعام، ومن صالة الطعام إلى البار، ومن البار مرة أخرى إلى الغرفة، وعلى أقصى حد من الغرفة إلى الحمام، بدون اختيارات أخرى كثيرة، لم يكن ريينا يمتلك نساء أخريات بالقرب منه. ولكي نكون واقعيين، لا يوجد الكثير من النساء المُستعدات للاحتفاء بانتصاب صباحي، بدون مبرر.

على أية حال، أخذت سارة تُلينه – رغم أنه إن سمحت لنا المزحة، سيكون من الأصوب أن نقول إنها أخذت ((تجعله أكثر صلابة))– بدون أن يدرك.

بكى ريينا من الفرحة، وبكى أكثر عندما قذف منيه للمرة الأولى. بكى بينما ينظر إلى بقعة المنى التي تخللت الملاءات. بكى لدرجة أن سارة لم تجد بدًّا من الانضمام للبكاء.

بكيا بشهقات، كلٌّ بمفرده. ريينا مُديرًا رأسه للجدار البارد في الغرفة؛ سارة ناظرةً إلى السقف، ذلك السقف القبيح من الصفيح، سقف كان بالنسبة لها كالسماء، سقف متشقق بسبب الشمس، يوشك على التحلل.

13

لا تتحيروا. إنه ليس فيلمًا رديئًا – ولا حتى جيدًا– عن قتلة. إنهما لايبا وجونثاجا اللذان لا يستطيعان إخراج جثة لوخان. فكرة وضعه في حقيبة عربة الدورية كانت سيئة. لم يحسبا حساب بقعة الدم. وأكثر من هذا، لم يحسبا حساب الرائحة.

–والآن، بعدما أصبح ابن العاهرة ميتًا فالأمر أسوأ– قال جونثاجا، بينما يغطي فمه وأنفه بيده

–إنه يثير شفقتي – قال لايبا مُعارضًا–.

–شفقة...؟

–نعم... من آذى هذا العجوز؟ انظر له: نحيف ومنحنٍ هنا.

–إيييه... لكن انظر أيضًا كيف ترك لك أنفك.

–حسنًا، هذا لأننا ضايقناه.

–إنه هندي شاذ. ماذا يعني أن يسير عاريًا مع الصبية؟

–لا.

–لا ماذا.. شاذ كبير. شاذ كبير هندي.

–أنت تسيء الظن بكل الناس. لكن لأن لديك مشكلة...

–أي مشكلة؟ الشواذ هم المشكلة. انظر لهذا وانظر للشاذ بيبو. لقد وقع في ورطة لسيره مع صبية ومع هنود شواذ. مثل الصحفي الشاذ.

–حسنًا.. إنك تخلط كل شيء، الصحفي أبله.

–إنه شاذ آخر. لأنك لم تر الصور التي يمتلكها في الكاميرا.

–بلى رأيت.

–لم تر. ابن العاهرة لديه صور للجميع. لديه صور لنا لا تعرف أنت أنه قام بتصويرها.

–أي صور يمتلك؟

ـصور.. لك، لي، للريس. ولديه صور لتلك العاهرة.. أعتقد أن الصحفي الشاذ قتلها.

ـحسنـ.... وهل أخبرت الريس؟

ـلا.. مع كل هذه المشاكل.. يجب فعل هذا، يجب الذهاب للبحث عن ذلك الآخر.. والآن ذلك الهندي الشاذ.

استنشق جونثاجا هواءً وغاص في صندوق عربة الدورية. أمسك بربلتي لوخان، وبعد أن حاول قليلًا، ترك الساقين معلقتين خارج السيارة. بعد ذلك قفز للخلف، في ذات الوقت يُطلق الهواء الذي كان يكتمه.

ـيا للقرف! لا يمكن القيام بهذا بدون قفازات.

ـلماذا تعتقد أن رائحتهم مقززة هكذا؟

ـالهنود؟ لأنهم قذرون، إن لم يكن هذا.

ـأعتقد أن هذا يتعلق بالديانة.

ـلا يستحمون بسبب الديانة، ممنوع على أبناء العاهرة أن يستحموا.

ـلا.. أعتقد أنهم يضعون شيئًا ما على أجسادهم. نوع من الحماية.

ـ((كِريم)).

ـهذا ممكن.

ـ((كريم)) من الغائط..

فرك جونثاجا يديه وعاد إلى الصندوق. يريد تحريك الجثة لكنه لا يعزم أمره، لا يعرف من أين يمسكه.

ـساعدني...

ـكان يجب عليك أن تُخرج هذا الجانب أولًا، وبعد ذلك الساقين.

ـآه، وكان كل هذا الجزء من الجزء من الجسد، وهو الضِّعف، سيصبح مُعلقًا خارج السيارة.

ـلا، لأنني كنت سأكون هناك لكي أمسك بالجانب الآخر.

ـأي كلام، إن لم تكن تساعدني الآن. هيا...

ـيجب أن نودِّعه ببضع كلمات ـ بينما يقترب من الصندوق، كان لايبا ينطق بصعوبة، كأنما يشق عليه أن يتنفس ـ، مثل كاررانثا والفتاة.

ـلكن مع هذا يختلف الأمر. بسبب الديانة.

جذب لايبا من ذارع، وجونثاجا يرفعه من القفا، رفعا الجثة حتى تركاه جالسًا في الصندوق، بالساقين معلقتين في الخارج. من جبهة لوخان يبدأ خيط دموي في التساقط، خيط بين الأحمر ولون النبيذ.

ـأُمسك جيدًا، سيسقط مني ـ قال جونثاجا.

ـيبدو كسكران.

ـنعم كان يعيش مُغيبًا.

ـسنمدده هنا واذهب أنت لإحضار دلو وماء لتنظيف الصندوق.

ـفي النهاية أقوم أنا وحدي بكل شيء.

رفع الشرطيان الجثة، جونثاجا يضع ذراعيه تحت الإبطين ولايبا ممسكًا بساقيه. أخرجاه في النهاية من الصندوق ومدداه على جانب، فوق كومة من الأعشاب. كانت أيدي وأذرع جونثاجا ولايبا مغطاة بالدماء.

ـإن كنت قد أمسكت بقدميه تقريبًا ـ قال لايبا ـ، أين لمست كل هذه الدماء؟

ـلقد انتهى الأمر، لا تضايقني أكثر من هذا ـ استدار جونثاجا ودخل القسم بحثًا عن دلو وخرق قماش. انتهز لايبا ذهاب زميله، ونظر إلى جسد لوخان وقال:

ـأبانا الذي في السماوات...

بينما كان يتقدَّم في صلاته، كان يختلس النظر، ينظر بطرف عينه. لا يريد أن يضبطه جونثاجا ((مُتلبسًا)).

*** * ***

الحيوانات لا تعرف احترام الأموات. على أي نحو آخر لا يمكن تفسير أن كوكو، الدجاجة، كانت تدور حول جسدي سارة والحمَّال كاررانثا، بل وكانت تجرؤ على نقرهما.

ـماذا سأقول لأبيك؟ـ عاتب بنديني بيبو.

لكن بيبو كان يشعر بالدوار بعد، لم يكن في حالة تسمح بسماع المواعظ.

ـفلتكن ممتنًا لأنني كنت من عثر عليك.

كان الصبية الثلاثة نائمين، مكومين في ركن. الشرطيون قاموا بتغطيتهم ببضع بطانيات. على أية حال، كان الجو الحار يدفع للتفكير في أن أفضل شيء هو تركهم في الهواء الطلق، لينامو على الأرض، التي تكون أكثر برودة دائمًا.

ـأنت أبله يا بيبو ـ واصل بنديني ـ أبله كبير.

وجه بيبو، الذي كان يستند على جدار، بدأ في رسم ابتسامة ببطء.

ـكم حماقة ارتكبتها في وقت قليل ـ قال له بنديني ـ. انظر لنفسك: إنك مُخدر.

ـلا، لا ـ غمغم بيبو ـ مُخدر لا.

بعد ذلك استنشق هواءً وأخذ يتكلم بحماس أكبر:

ـأنا طاهر. طاهر مثل هؤلاء الثلاثة الراقدين هناك. طهارة مثل هذه ستفيدك يا بنديني. لكنك أضعت نفسك. وهل تعرف لماذا؟ لأنك قتلت المسكين لوخان. الوحيد الذي كان يمكنه أن يُطهِّرك.

ـمدمن وشاذ ـ ردَّ عليه بنديني ـ: يا لأبيك المسكين!

ـشاذ لكنني طاهر. أنت مغطى بالدنس حتى أذنيك.

تصنَّع بنديني أنه سيوجه لكمة إلى بيبو، الذي أغلق عينيه، كأنما يريد أن يتصدى لها بأجفانه.

ـكما ترى فأنت لست رجلًا ـ قال له بنديني. بعد ذلك ذهب إلى حيث يوجد الصبية. انحنى ونظر لهم عن قرب. ثلاثة أجساد نحيفة، هزيلة، مثل الأعشاب البرية الجافة، متلاصقة. مرَّ عليهم بنديني بنظرته فيما يشبه الفحص. من هناك، مقرفصًا، دون أن يتوقف عن النظر إليهم، صرخ في بيبو:

ـوهل تحرشت بهم أيضًا يا بيبو؟

الابتسامة التي غطت وجه بنديني – ابتسامة شخص واثق، شخص يُسيطر على كل شيء– تختفي فور أن يدير رأسه، ويجد بيبو أمام عينيه – اللتين كانتا تصاحبان الابتسامة ببريق خبيث–. كان بيبو يقف على مبعدة بضعة سنتيمترات من وجهه، من وجه بنديني. والأكثر من هذا، لا زال بيبو بسرواله.

–إيه، اللعنة– لا ينطق الشرطي سوى بهذا. لقد أُصيب بفزع كبير.

–ها أنت ترى من هو الشاذ– لم ينظر بيبو للشرطي بينما يتكلم. كان ينظر للصبية:

–هؤلاء أفضل من أي شخص. يجب أن نوقظهم.

ابتعد بنديني بحذر. كان بيبو يضايقه. يثير قلقه. تمامًا مثل هذه الدجاجة الحقيرة، وتساءل لماذا يجب أن تدخل الدجاجة إلى القسم.

كوكو، التي لا زالت تقفز حول الأموات، بدا أنها قرأت أفكاره وقطعت قوقأتها لترقبه بنظرتها كدجاجة مريضة. ارتعد بنديني واستدار إلى الصبية النائمين:

–نعم – قال– سأوقظهم الآن.

14

صديقة سارة اسمها ميريام. التقى بها ريينا في ((ثيركيتو)) بالطبع. إنها قبيحة، فكَّر بينما يُقبِّلها قُبلتين: واحدة على كل وجنة. كما لم تعجبه رائحتها: كأنها رائحة زهور متعفنة. والأكثر من هذا، عرفها بينما تتناول الماتيه، وبهذا كانت رائحة فم ميريام ساخنة وعطنة.

فكَّرت سارة أنها يمكن أن تأخذ مع ميريام ليلة من الراحة، أو على الأقل ساعتين. ومنتهزةً عدم ممانعة ريينا، بينما كان في الغرفة، كما الأزواج: ساكنًا، صامتًا. لهذا أعدَّت الماتيه ونادت على ميريام لكي تنضم لهما.

– وهذا أصبح كخطيبك الآن – كان أول شيء قالته ميريام، بينما ترتاح في جلستها على دكة، بدون الاهتمام بوجود ريينا. أعطتها سارة الماتيه ونقلت الحوار إلى منطقة أخرى:

– اليوم لا يُطاق. لا يصلح لعمل أي شيء.

– يا للحرّ!– ردَّت الأخرى.

حرَّكت سارة رأسها موافقة، بينما كانت تركِّز نظرتها على صرصار كبير للغاية يبدو نائمًا في أحد الأركان. أكثر منه حشرة، كان الصرصار يبدو ديكورًا، عنصرًا آخر من عناصر ((ثيركيتو)). من فوق الفراش، رفعت سارة نعلًا وقاست المسافة بعينيها شبه المغمضتين، لكن في ذات اللحظة التي قررت فيها إطلاقه، خرج الصرصار من سباته واختفى بين فوضى الملابس المُلقاة في ركن آخر. انتهى الأمر بالصندل إلى الارتطام بالجدار.

– هذا المكان القذر مليء بالحيوانات – قالت ميريام–. بالأمس كان مذاق الماء غريبًا، بسبب سقوط ببغاء وموته في خزان الماء.

– ببغاء؟ –سأل ريينا–، ببغاء بالفعل؟

قبل أن تردَّ عليه، توجَّهت ميريام إلى سارة:

– آه – قالت–، إنه يتكلم أيضا.

بعد ذلك أكدَّت لريينا أن ببغاء عطشان سقط في الخزان، وأنه لم يستطع

الخروج.

ــ من يدري كمية الماء المتعفن الذي نتناوله بسبب هذا الحيوان القذرــ قالت.

ــ أنا أحب الببغاوات، تصلح كحيوانات أليفة منزليةــ كان هذا رأي ريينا.

حينئذ أخذت ميريام في ذِكر المثالب: قالت عن الببغاوات طيور قذرة، تحتاج لرعاية كبيرة، تصاب بالأمراض بسهولة، وبعد كل شيء، كحيوان أليف، فالكلب أفضل.

ــ الكلاب تفيد في كل شيء ــ أكدتــ، عندما كنت صغيرة، وأعيش في الريف، كان لدينا الكثير من الكلاب.

حاول ريينا أن يُقدم برهانًا آخر: ((كل الناس تمتلك كلابًا...))، لكنه لم يستطع المواصلة لأن ميريام رفعت صوتها لكي تحكي لهم قصة (هندية)، الكلبة التي كانت تمتلكها في طفولتها.

ــ بالأحرى كانت كلبة أخويَّ ــ قالتــ، كانا يصطحبانها دائمًا لصيد (الشينشيلية).

وبينما كان الماتيه في يدها، بين رشفة وأخرى، شرحت لسارة وريينا كيفية صيد (الشينشيلية):

ــ (الشينشيلية) ــ قالتــ، تحفر الكثير من الحُفر، الكثير من الجحور في الأرض، والكلب، أو الكلبة، يجب أن يذهب ويدفع خطمه داخل الثقب ــ ولكي تُصور الشرح، حملت ميريام يديها المفتوحتين إلى أذنيها، وحركَّت رأسها بعد ذلك، كأن يديها تمثلان الحدَّ الذي يتجاوزه الرأســ، وحينئذ يفزع (الشنشيلية) ويريد الخروج من ثقب آخر. وهناك يجب أن تكون موجودًا، بعصا على سبيل المثال، وتضرب (الشينشيلية) فور أن تظهر.

طريقة صيد (الشينشيلية) بدت لريينا بسيطة للغاية:

ــ صيد (الشينشيلية) أمر تافهــ قال.

لم تعارضه ميريام. ما كانت تريد أن تحكي هو ما يفعله أخواها، اللذان يُدعيان لوثيو ونيرون، مع (هندية) الكلبة:

ـ أخواي كانا قذرين، كانا يرسلان الكلبة لتُدخل رأسها في الثقب، ولأن مؤخرتها تصبح إلى أعلى، يقوم القذران بالإمساك بها ويلجانها من الخلف.

اصطبغ وجه رينا بالحُمرة من الحكاية، كما أن الخجل أصابه بالتوتر. أراد التورية بالكلام مع ميريام حول اسم شقيقها: ((نيرون، مثل الذي أحرق روما)). سارة، على العكس، كان قد سمعت حكاية ((هندية)) مرات كثيرة، وقالت ما اعتادت على قوله كل مرة: ((كلبة مسكينة)).

ـ لا، أي مسكينة ـ صححت لها ميريامـ: كانت الكلبة المُفضلة لأخويِّ، كانت أكثر من يأكل. كانت سعيدة.

بعد ذلك كررت أن الكلاب، كحيوانات أليفة، تفيد في كل شيء.

ـ وهكذا تعلَّم أخواي النكاح، مع (هندية). لم يرحم القذران أي شخص.

شخص ما، فجأة، أطلق صيحة من الخارج ونهضت ميريام على عجل، كأنما شعرت بالفزع.

ـ سأذهب للعمل ـ قالتـ، إن أردتما يمكننا أن نواصل غدًا.

حياها رينا بشيء من الإعجاب. الآن كان يراها بطريقة أخرى، تقريبًا كانت ميريام تعجبه.

ـ العاهرة ـ اشتكت سارةـ، هذه القذرة حملت الماتيه. لن تُعيده.

* * *

موضوع الصور تمَّ في الليلة التالية، عندما دخلت ميريام غرفة سارة لتُعيد الماتيه. كان رينا سعيدًا، بينما كانت سارة برأسها غائصة بين ساقيه. كان شديد السعادة حتى إنه لم يهتم بدخول ميريام هكذا، فجأة.

ـ أترك لك هذا هناـ قالت لسارة.

نهضت سارة وأشارت لها لكي تقترب من الفراش. عندما أصبحت قريبة منها، طبعت قُبلة على فمها.

ـ توقفي يا قذرة ـ قالت ميريام، لكن القبلة أعجبتها، وهكذا ظلت ساكنةً، كأنها تنتظر أن تقوم سارة بفعل شيء آخر.

لأول مرة في ((لاجونا فريا)) شعر رينا أنه مع نساء جميلات. طلب منهما أن

يتبادلا القَبل مرة أخرى:

– وسنقوم بالتصوير– عرض عليهن.

سارة وميريام لم يُفكرا في الأمر: صعدت ميريام فوق الفراش وسارة وضعتها أمامها. الاثنتان راكعتان بينما تتبادلان القُبل. في أثناء ذلك كان ريينا يقوم بتصويرهما كأنه مُصور فني.

لكن حينئذ تذكَّر أولجا مرة أخرى. هي، امرأته، علَّمته موضوع الصور. شعر في البداية بالحُرقة المُعتادة في المعدة، وبعد ذلك لم يستطع الحفاظ على انتصابه. لم يعد هناك أي شيء مُسلٍّ في قُبلات سارة وميريام فوق الفراش. قمع بكاءه وجلس على جانب. حاول التفكير في أمر آخر. في إيبانيث، العمدة. كانا قد تحدَّثا في تلك الظهيرة ذاتها.

– لا تضايقني مرة أخرى بموضوع المنظمة يا ريينا، من فضلك...– قال له العمدة. ورغم أن ريينا بحث عن طريقة لعدم إبعاد الحوار عن الموضوع، انتهى به الأمر بسماع ما يريد إيبانيث أن يقول. تحدَّث العمدة بألم عن ترمله:

– هل تعرف منذ متى لم أنم مع امرأة؟ – قال.

ماتت زوجته لتناولها ماءً فاسدًا. كان هناك شيء ما غير سليم في مواسير البيت، كان هناك ماء أقل من المعتاد. المكان الوحيد الذي كان يعمل بشكل عادي هو الحمام الصغير خلف البيت، والذي كان يتغذي بالمياه عبر مُحرك يمتص الماء من الشبكة المحلية البائسة. قرر إيبانيث أن يحل المشكلة، ودون اللجوء لأي شخص. بالكاد جعل اثنين من الهنود يساعدانه. ((العمدة يجب أن يكون نموذجًا يُحتذى به))، قال لنفسه.

كسر أرضية الحمام والبهو حتى المطبخ، وقام بتوصيل المواسير المُتشعبة، مواسير قديمة؛ قام بتغيير بعضها، كانت مليئة بالفطريات، بمواسير جديدة طلبها من مدينة ((ريسيدنثيا)) (وبالمرة، تعلَّم أن المواسير كانت مصنوعة من مادة تُسمى البوليبروبيلين، معلومة جعلته يشعر أنه رجل حكيم). كما أضاف مُحركًا آخر، أمر صغير آخر غير قانوني، لن يسأله أحد بشأنه. ورغم هذا اهتم بالأمر وقام ببناء صندوق صغير، ليس لكي يُغطي المحرك فقط، وإنما

الضجيج الصادرِ عنه.

كان عملًا شاقًّا، خاصة بالنسبة لشخص يرتجل على نحو ما. عندما خرجت النقاط الأولى من صنبور المطبخ، وبشكل خاص صنبور الاستحمام، شعر إيبانيث أنه قادر على فعل أي شيء. حتى إنه فكر في تعميم هذا الحل في ((لاجونا فريا)) بالكامل ((بمنتهى البساطة مُحركات))، قال.

كانت زوجته مُبتهجة أيضًا. سمحت لنفسها بشيء من الإسراف: نظام رش لأرض الحديقة، شطف الملابس مرتين، تنظيف السور... الحياة مع الماء أصحبت أسهل بالنسبة له.

النقطة الوحيدة أن الماء كان له مذاق غريب وعكر إلى حد ماء. قالت هذا لزوجها، لكن إيبانيث كان سعيدا للغاية بنجاحه. ((كل شيء في وقته))، ردَّ عليها. كان قد التقى بمجموعة من المهندسين ليحدثهم عن الموضوع، عن المحركات، عن البوليبروبيلين، الذي كان يذكره بأحرف الاختصار : PPM، كما يقول الخبراء. كما كان قد استقصى عن الأنواع المختلفة من المواسير، أصبح على علم بالأسعار، وحتى إنه طلب لقاءً مع حاكم المحافظة. لأول مرة يشعر إيبانيث أنه يعمل كعمدة.

لكن حينئذ مرضت زوجته. بدأت بالدوار والقيء – حَمْلٌ، تكهنت المسكينة، أخ لبيبو– حتى تركها الإسهال نحيفة للغاية، وأصبح لونها مائلًا للأخضر. في وسط إحدى الولائم، لقاء كان إيبانيث يراه مهمًّا، هاجمتْها تقلصات في المعدة، ولم تخجل من الإمساك ببطنها والصراخ كمجنونة.

عندما أدركوا خطورة الوضع كانت المرأة قد أخذت طريق اللا عودة. كانت تهذي في نوبات الإسهال، كان تشكر السماء لأن ابنها بيبو سيعيش في قرية بها ماء، حتى وإن لم تكن هي على قيد الحياة. ظلت تعتقد أيضًا، أن ما بها كان حملًا: ((فكِّر في أسماء لابنك))، قالت لإيبانيث.

لكن إيبانيث لم يعد يفكر في أي شيء. انطفأ حماسه. وخاصة عندما جاء بسبَّاك من مدينة ((ساينث بينييا))، لكي يفحص التوصيلات التي قام بها. ((هراء))، قال له السباك، ((يجب أن يسجنوا من فعل هذا)): كشف له السباك عن وجود شروخ في المواسير – مواسير الحمام ومواسير البوليبروبيلين–

وتسريباتها ونقاط ضعفها. محرك الماء كان يمتص ويخلط الماء والفضلات.

لم يجد إيبانيث في نفسه شجاعة للاعتراف بمسئوليته. ((هؤلاء الهنود الأغبياء))، قال. كان الماء يختلط في نقطة ما مع فضلات الحمام، وكانوا يشربون هذا المزيج، ويستحمون به، ويستخدمونه للحياة.

كانت زوجته من فرط سعادتها قد توقَّفت عن استخدام جهاز المياه، وأصبحت تشرب الماء من الصنبور، فرغم أنها كانت عكرة وذات رائحة كريهة، فقد فتحت لها ما يشبه آفاق حياة جديدة.

وفجأة، بدأت المرأة تحتضر. إيبانيث – وفق ما حكى لريينا في تلك الظهيرة– لم يمكنه حتى أن يشعر بسلوى ألَّا يرى ابنه أمه على هذا الحال. ((لقد رآها هكذا، المسكين، موشكة على الموت))، قال. بعد ذلك عبَّر عن حزنه ببكاء يعرفه ريينا، لكنه رغم هذا كان يشعره بعدم الارتياح.

– حدث هذا قبل اثني عشر عامًا – قال العمدة–: كل ذلك الوقت بدون أن أنام مع امرأة.

الآن، في ((ثيركيتو))، نظر ريينا إلى السقف الصفيح كأنما يخضعه لفحص؛ وعلى الفراش، كانت سارة وميريام لا زالتا تمارسان الحب، وتقولان أشياء غير مفهومة.

15

– يا للصورة الجميلة! قال بيبو.

جونثاجا يعرض في الكومبيوتر الصور التي كانت في كاميرا ريينا. التي أعجبت بيبو كانت صورة له مع أبيه، خلال وليمة شواء عقداها على شرف ريينا، للاحتفال بالورشة الأدبية التي كان ريينا يدرسها له. في الصورة يظهر إيبانيث جالسًا، رافعًا ذراعيه بأصبعين على شكل V. كان وجهه مبتهجًا، وعيناه لامعتين تحت تأثير النبيذ. كان بيبو واقفًا، خلفه، عاقدًا ذراعيه فوق كتفيه بينما يُقبِّل أباه في وجنته.

لم يقل الشرطيون أي شيء. الصورة تثير فيهم الرغبة في إطلاق النكات، لكنهم يحرصون على عدم قول أي مزحة.

– لكن انظر تلك الصور الأخرى – قال جونثاجا – الفتاة تظهر هنا. لهذا أقول إن الصحفي قتلها.

رغم هذا، بينما كانت صور سارة عاريةً تمر ببطء، واحدة تلو الأخرى، لم يهتم أحد بتعليق جونثاجا. لم يكن الشرطيون منتبهين للصور وإنما كانوا مشدودين. بالفعل، ما إن انتهت صور سارة، استمر عرض مجموعات الصور التالية: القرية، الطبيعة، الوجوه المعروفة. وفجأة يظهرون، بنديني، لايبا وجونثاجا.

– انظر يا (ريس) – أشار جونثاجا إلى شاشة الكومبيوتر بحنق مُبالغ فيه– الشاذ كان يتلصص علينا كل هذا الوقت.

عندما قال ((شاذ))، نظر الشرطي بشكل غير إرادي إلى بيبو، كأنما يعتذر. ابتسم بيبو وغمز له بعينه.

هذه تعجبني – قال بنديني–. في الصور التي يشير إليها يظهر إلى جانب لايبا، بينما يخرجان من القسم. أحدهما، لايبا، ينظر إلى جانب –الأيسر–، والآخر، بنديني، ينظر إلى الأمام، كأنهما يبحثان عن شيء. الوجهان هما ما يعجب بنديني، تلك التعبيرات لرجلين ذوي بأس.

– ما رأيك يا لايبا – أصرَّ بنديني–، يجب أن نفعل شيئًا ما بهذه الصورة،

أليس كذلك؟

– ربما برواز صغير– اقترح لايبا.

– نعم، برواز، لكن ربما براويز كبيرة، بما أن حوائط هذا المكان خاوية – نظر بنديني حوله، الجدران القذرة، المطلية بلون سماوي مائل للرمادي: مكان خانق. نظر بنديني مثل النساء اللائي يُفكرن في عمل تغييرات في البيت.

استاء جونثاجا من عدم اهتمام زميليه وعاد بالصور للخلف حتى وجد صورٍ سارة. أشار للشاشة بإلحاح، كأنما لكي يُعيد الآخرين للانتباه لما يهم حقيقةً. لكن، ما هو الذي يهم حقيقة؟ من يمكنه أن يعرف هذا؟ لأن جدران القسم كانت بالفعل خاوية، بشعة، مُحبطة، وفعل شيء في هذه الجدران يبدو أمرا مُلحًّا. بالنسبة لبنديني، في تلك اللحظة، كان تجميل تلك الجدران هو أكثر المهام أولويةً. إنه حتى لا يفكر سوى بهذا: ((يحب أن نقوم بالطلاء. كيف يفتقد هذا المكان للحياة!)).

حينئذ حاول جونثاجا أن يثير انتباهه مرة أخرى:

– هل نذهب للبحث عن الصحفي أم ماذا؟– سأل.

– إيييه، كم أنت ثقيل– كان بيبو هو من قال التعليق الأخير، بينما يقف بين رجال الشرطة، كأنه أحدهم، بسرواله، وكوكو مُستقرة على أحد ذراعيه، بينما يداعب ريش الدجاجة بيده الأخرى.

– الصحفي لا يضايق أي شخص – أضاف–، ويبدو أنه يأخذ صورًا جيدة.

على أية حال، كل شخص في ذلك القسم، سواء مع الجدران، أو الصحفيين، أو الدجاج، كان تائهًا في تأملاته الخاصة. في الخارج، في الشارع – لكن نكرر مرة أخرى، هل يمكننا أن نُطلق كلمة ((شارع)) على هذه الصحراء المنتشرة خارج بيوت ((لاجونا فريا))؟– الريح تهب، ومع هبوبها تثير عاصفة ترابية جحيمية.

فلتحتموا، فلنحتَمِ جميعًا، فلندخل البيوت، فهذه الرياح تترك كل شيء في طريقها متسخًا، وبَعد ذلك لن توجد رغبة في المواصلة.

* * *

لكن ريينا لا يحتمي. يواصل طريقه سيرًا، كأنما لا شيء يحدث، بذات الصندل المهترئ الذي وصل به إلى ((لاجونا فريا))، قبل ثلاثة أشهر. ثلاثة أشهر. أشياء كثيرة يمكن أن تحدث في ثلاثة أشهر. أو قد لا يحدث أي شيء. والآن؟ هل يحدث أي شيء، أم ببساطة لا؟ لا أهمية لهذا، ريينا هناك. الشيء الوحيد الجديد الذي يحمل معه هو ذلك الببغاء الجريح، كوتو، يحمله في الحقيبة. يتمنى علاج جناحه في أسرع وقت؛ لكي يستعيد الطائر قدرته على الطيران، أو على الأقل يمكنه أن يعيش حياة أكثر دعة داخل قفص جيد التجهيز.

لكن انظروا له الآن، إنه يدخل ((ثيركيتو)). ريينا شخص غير حصيف. وبالطبع يبحث عن ميريام، يريد أن تقول له أي شيء حول سارة، أن تعطيه أي معلومة حول هذه الميتة، شديدة العنف والغرابة.

لكن، لأن الساعة كانت الرابعة واثنتي عشرة دقيقة عصرًا، لا يوجد من يرغب في الخدمة، بل مجرد فتح أبواب ((ثيركيتو)). أثناء النهار يكون ذلك العنبر– المخزن الذي يقوم بدور الكباريه موحشًا. دار ريينا حوله طارقًا الباب الأمامي، الباب الخلفي، وطرق أيضًا على النوافذ الجانبية. كانت هناك فتحات في الصفيح، وكانت متقدة في تلك الساعة بسبب الشمس. كان ريينا يصحب الطرقات بصفير وأيضًا بنداءات خجولة، لا يمكن لأي شخص أن يسمعها في هذه الظروف. تلك النداءات كانت تبدو همسات، بينما يقول، على سبيل المثال: ((ميريام... ميريام... هل يوجد أي شخص هنا؟)).

استمر دقائق كثيرة حتى يطل شخص ما من أحد الأبواب ويسأل ريينا عما يريد، ويقول له أيضًا إن المكان سيفتح اليوم متأخرًا عن المعتاد، وربما لن يفتح. الرجل الذي يقول هذا ضخم الجثة، وجهه وردي، ملامحه هندية أصلية، ما يشبه (هنديًا ألمانيًا من قبيلة توبا). ريينا يعرفه، الهندي الألماني هو صاحب الصرخات والصيحات التي سمعها خلال الأشهر الثلاثة السابقة أثناء غزواته، وإن فضلتم، أثناء مغامراته في ((ثيركيتو)). لا يعرف ريينا كيف ينطق اسم هذا الشخص: لم يفهمه مُطلقا عندما قالته سارة، لكن إن أجبره شخص

ما على أن يقول اسم هذا الرجل، هذا (الألماني الهندي التوبي)، أو (الألماني التوبي)، سيقول ريينا، بصوت خفيض، لكي لا يكشف عن جهله، أن هذا الرجل يُدْعَى هانك. أو ربما ((جانك)). ((إنه شخص طيب))، كانت سارة تقول، ((يرعى المرأة وينصحها)).

الآن، مع هانك الذي يطل بالكاد من الباب، يحاول ريينا أن يرسم في رأسه صورة الرجل الطيب. لكن هانك لا يساعده:

ــ كيف حالك؟ سأل ريينا، الخجِل، الخائف، خوفًا لا يُحتمل ــ: أنا آتي هنا كل ليلة تقريبًا...

ــ ...

ــ أنـــــ.... عادة أكون مع سارة...

ــ ....

ــ ... سارة، الفتاة من ألبيردي.

ــ إنها لم تعد تعيش هنا ــ يكتشف ريينا أن صوت هانك، عندما يتكلم بهذه النبرة الخفيضة، يمكن أن يبدو صوتًا ودودًا. حتى يمكن أن يكون صوتًا لرجل طيب.

ــ بالطبع، أعرف أنها غير موجودة ــ ردَّ ريينا ــ: لكنني كنت أبحث عن ميريام، صديقتها.

ــ ولماذا تسأل عن الأخرى إن كنت تبحث عن الصديقة؟

تلعثم ريينا. سأل نفسه لماذا ذكر اسم سارة، حيث من المُفضل عدم ذكرها الآن.

ــ حسنًا، ادخُلْ ــ أمره هانك.

الدخول وعدم الدخول، يخطو ريينا خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف. يمكن للمرء أن يقول إنه يلعب بالنار بينما يختبر صبر (التوبي الألماني الهندي).

ــ هيا يا رجل، ادخُلْ ــألح عليه هانك ــ ألا ترى أن كل شيء يمتلئ بالتراب هنا؟

وكان الرجل مُحقًا: الرياح أصحبت شيئًا مثيرًا للضيق، شيء مقزز. التراب، الغبار لا يسمح بأن يفتح المرء عينيه، كما يمكنكم أن تُقدِّروا.

سمح رينا لنفسه بتردد أخير، يمكن أن يُقال عنه: آخر محاولات الدلال – أو الهيستيريا–، حتى يصبح على مرمى حجر من هانك، الذي يجذبه بقوة إلى داخل ((ثيركيتو)) ويُنهي هذا العرض.

16

في النهاية كتب بيبو أغنية شكاريرا. لم يكن ريينا يعرف إن كانت شكاريرا جيدة أم رديئة. لم يهتم من قبل بكلمات الأغاني الفلكلورية. سواء كانت (شكاريرا) أو (تشامامیه) أو (زامبا): كلها تثير ضيقه. كانت تثيره فيه الاكتئاب. ورغم هذا اضطر أن يتصرف بتهذب وأن يسمع.

جاء بيبو إلى مسكنه بالجيتار، وكان مبتهجًا لأقصى حد.

– لا أعرف العزف – أوضح – لكنني سأقوم بدقات على صندوق الجيتار.

كما نبه ريينا إلى أن الكلمات لم تكن مُكتملة، أنه لا زال بحاجة للعمل على مقطعين.

بعد ذلك استنشق بيبو الهواء بعمق، وقبل أن يُطلقه، أَظهر لريينا ابتسامة طفولية للغاية. وفي النهاية غنَّى:

قريتي صمتٌ يمكن الشعور به في الليل
ندوبي أشكالٌ لروحٍ مُعذَّبة
قريتي وندوبي هما طريقي للشعور.
يجب تَعلُّم الرؤية للعثور على الجمال
هنا حيث وُلدتُ هذا يُسمى بطولة
عيناي تريان بعيدًا، وأريد أن أصل بعيدًا.

مع الوصول لهذه النقطة، توقَّف بيبو. كان يضرب على الجيتار بقوة كبيرة، حتى إن الصخب غطى على بعض الكلمات، ولهذا لم يستطع ريينا سماع كل الأغنية.

– هل أعجبتك أم ماذا؟ سأل بيبو.

– إنها قصيرة – أمكنه أن يجيب بهذا.

– لقد قلت لك إنها غير مُكتملة.

– غَنِّها من جديد، هيا.

عاد بيبو لغناء المقطعين. هذه المرة بحماس أقل، وهو ما سمح لريينا بفهم كل الكلمات. لم تَبْدُ له سيئة تمامًا، في الحقيقة كان مندهشًا.

– كتبتها من أجل ((لاجونا فريا))، أليس كذلك؟

– لم أكتبها من أجل خطيبتي....

– بالطبع لا...

بعد ذلك ظلا صامتين، بيبو يدق على صندوق الجيتار، وريينا يجتهد في العثور على شيء آخر يقوله. كان يعرف من البداية أن هذه اللحظة يمكن أن تصل، كان يعرف أنه لكي يستكمل الورشة الأدبية – مثل هذه الورشة المخصصة لشخص واحد– لا يمكن أن يبقى بدون كلمات.

حينئذ تحدث بيبو:

– يجب أن تساعدي لاستكمال المقاطع الناقصة.

– نعم، حسنًا– ردَّ ريينا، لكنه ندم في الحال.

– أنت تعيش في ((لاجونا فريا)) منذ فترة، يمكنك أن تساعدني بفكرتين.

كان ريينا يتفق مع هذا الرأي: يعيش منذ فترة طويلة في ((لاجونا فريا))، أكثر مما كان يمكنه أن يتخيل. ولم يعد يفكر تقريبًا في منظمة **VIDAS**، ولا في الناشطين البيئيين المفقودين؛ الخبر الأخير الذي أرسله للجريدة كان شجبًا لنقص الماء في المناطق الداخلية من تشاكو. وعمليًّا، قام العمدة إيبانيث بإملاء هذا الخبر. أرسله بالبريد الإلكتروني إلى ثلاثة عناوين – رئيس التحرير، السكرتير، ومُصحح الجريدة– لكن لم يجبه أحد. كما لم يهتم بالتحقق من نشر الخبر، رغم أنه كان واثقًا إلى حد كبير أنه لن يُنشر مطلقًا. في النهاية لم يكن هذا يشغله: كان خبرًا تافهًا.

أعاده بيبو إلى هناك، إلى المسكن، بما يشبه الاعتراف:

– لابد أنك قد أدركت – قال له–: نسخت الإيقاع من أغنية أخرى.

بالطبع لم يدرك ريينا هذا، بالنسبة له كانت كل تلك الأغاني متشابهة. قبل أن يرد، فكَّر في عدد المرات التي قام فيها هو ذاته بكتابة قصائد انطلاقًا من قصائد أخرى أعجبته. واعترف لنفسه أن هذا حدث في كل المرات، بدلًا من

إلهام الكتابة، كان ببساطة يقوم بالنسخ.

ــ لكن الكلمات كلها من تأليفك ــ أراد أن يطيب خاطر بيبو، الذي تحولت بهجته السابقة إلى تعبير عن الشعور بالذنب ــ. هنا سنعمل على الكلمات، وبعد ذلك ستقوم أنت بالتفكير فيما يجب أن تفعل في الموسيقى.

ــ نعم، لكنني أشعر بالذنب لأنني قمت بالنسخ.

ــ كل الفنانين ينسخون، لا يمكن عمل شيء من العدم.

ــ آه، يا فطنتك، لكن هكذا كل شيء سيصبح شبيهًا بالآخر.

لم يرغب ريينا في مواصلة النقاش:

ــ غَنِّها مرة أخرى، هكذا نستكمل الكلمات ــ قال.

وانطلق بيبو، بالصوت عاليًا، وضاربًا بقوة على الجيتار. ربما لم ينتبه ريينا، لكن الإيقاع لم يكن سوى إيقاع (ادخُلْ بيتي دون أن تطرق الباب) الأغنية المُفضلة لبيبو.

* * *

أبوا ريينا. بعينيه ثابتتين على السقف الصفيح ل-))ثيركيتو))، وبسارة نائمة إلى جانبه، كان ريينا يفكِّر في أبويه. هما، هي وهو، كانا المسئولين عن مشاكله في الفراش. كان ريينا متيقنًا من هذا.

بحجة أنه لا توجد تربية جنسية أفضل من تلك التي يفترض أنها تربية حرة ومنفتحة، اجتهد أبواه في الكشف عن فضائل الجسد البشري بطريقة يمكن وصفها بأنها عملية.

أي، منذ كان طفلًا صغيرًا، كان ريينا شاهدًا على العلاقات الجنسية لأبويه: جنس حر، غريزة حاضرة. إن كان في البداية قد نظر للأمر على أنه شيء طبيعي، خاصة وأنه كان يتعلق بأبويه ــ بالطبع يتعلق الأمر بممارسة طبيعية، لكن حسنًا، أنتم تعرفون ــ، لكن لم يمر وقت طويل لكي تبدأ الأمور في الاختلاط عليه.

كانت أمه تكلمه بدون محاذير: عن أن الجنس هو هذا وذاك، عن المتعة، عن التناسل، وأشياء أخرى كثيرة. لكن ماذا يمكن أن يفعل طفل إزاء كل هذا.

خاصة عندما قام أبواه بالوصول بالأمر إلى حدود قصوى، حيث كانا يفعلان هذا في أي مكان، بدون أن يشغلهما وجوده هناك، بينما يرى كل شيء. كانا يتقلبَّان في المطبخ، في صالة الطعام، في الحقيقة لم يكن يهمهما المكان. كان يريدان ببساطة أن يبرهنا على حريتهما.

كان رينا الطفل ينظر لهما بتركيز. كان أبوه رجلًا نحيفًا مشعرًا، بوجه غير متناسق، أثناء الفعل الجنسي كان هذا الوجه يكتسي بتعبيرات كالمسوخ؛ خلال فترات كان شعره طويلًا، وحينئذ يبدو الانطباع الذي يسببه أكثر تنفيرًا: كان رينا يراه شبيهًا بالمسيح، بصورة الرجل المصلوب، التي قام أصدقائه في الحي – أطفال لعائلات متدينة وملتزمة– بإطْلاعه عليها. أمه، على العكس، كانت امرأة ممتلئة، جميلة، وجنتاها حمراوان. كما كان ثدياها ضخمين. وكانت تتحدَّث كثيرًا أثناء العلاقة مع زوجها؛ على نحو ما، كانت صاحبة الكلمة العليا. رغم أن رينا كان مُعجبًا بكل هذا، إلا أنه لم يكن يفهم التأوهات والأوضاع؛ كان هناك شيء ما يربكه في هذه المشاعر المتناقضة التي كان الجسدان يثيرانها.

ذات ليلة حلم بأمه. كان عمره سبعة أعوام. حلم أنه أبوه، وأن يفعل بأمه كل الأشياء التي يفعلها بها أبوه. استيقظ مبللًا وسعيدًا. في الليلة التالي نام بأمل أن يتكرَّر الحلم. لكن كان هباءً، حلم بشيء آخر.

بعد شهرين اكتشف أنه يكفي أن يُفكِّر فيها، في أمه، وأن يحمل يده إلى ما بين ساقيه، لكي يشعر باللذة. كان شعورًا لا يوصف. بالإضافة إلى هذا كانت متعة يمكنه الشعور بها في أي لحظة، في أي ساعة، دون شعور بالذنب. أبواه ذاتهما علَّماه أن الأمر يجب أن يكون هكذا، أنه لا يجب أن تكون هناك تحفظات في مثل هذه الموضوعات. وأي شيء آخر يمكن أن يقوله شخصان يسيران عاريين في البيت؟ بالإضافة إلى هذا، كان يبدو أنهما شخصان يعيشان في حالة هياج ودائمًا لديهما رغبة.

المشكلة جاءت عندما قام الطفل رينا بالاستمناء أمامهما، بينما كانا، أبواه، في ممارساتهما المعتادة. في تلك المرة كانت أمه تبدو كالأخطبوط، مفتوحة مثل زهرة، ولم ير رينا دافعًا لكي يكبح نفسه. أخذ يفرك جسده بوسادة تقوم مقام الطرف الآخر، أمامهما، بينما كانا مشتبكين مثل مصارعين على الأريكة.

كان يحمل الوسادة إلى أعلى وإلى أسفل بين ساقيه؛ بالإضافة إلى هذا، كان ينسخ إيماءات أبيه: كان يضغط على أسنانه، يفتح عينيه مثل مجنون، يتأوه، كل الأشياء التي يفعلها رجل في هذه الحالات.

لكن، حينما انتبه الأبوان لما يفعله ابنهما، لم ينظرا بعطف ولا بهجة لرغبة الطفل رييِنا في تقليد تلك الممارسة. اعتبراها إهانة، ربما استهزاءً، لكن لا يمكن معرفة هذا. أيًّا ما كان، فقد دفع أباه للخروج للحظة من اشتباكه مع أمه، ولا زال عضوه منتصبًا، – حينئذ اعتبر رييِنا أنه ضخم، وبعد سنوات كثيرة، وبعد نمو عضوه، لا زال يعتبره هكذا– ووقف أمام رييِنا الصغير، وبذراعيه على خصره سأله: ((ماذا تفعل؟ ماذا تعتقد أنك تفعل؟)).

لم تكن هناك وسيلة لكي يعرف رييِنا ما يفعل. أخذ أبوه الوسادة وألقاها جانبًا. بعد ذلك أمسك الطفل، ابنه، من ذراعه، بطريقة شائعة بين الآباء، وحبسه في غرفة لكي يفكر، لكي يتأمل فيما كان يفعل. بالطبع، تأمل رييِنا. ومرت سنوات، وقع الطلاق بين أبويه، لم تصبح الحرية الجنسية اسمًا على مُسمى بعد، ولا زال رييِنا يتأمل. في تلك الليلة مع سارة، في ((ثيركيتو))، بدا له أن ذلك التأمل بلا نهاية.

17

بالأشياء القليلة التي وضعها ريينا في مسكنه، بين قطعة أثاث وأخرى، كان المسكن غير مرتب. انظروا لهذا الفراش: مجرد النظر له يسبب ألمًا في الظهر، لهذا توجد الحشيَّة على الأرض – إنها حشية من تلك الرفيعة، التي تبدو مناسبة لرضيع، أكثر منها لرجل بالغ. انظروا للملاءات: إنها قديمة، بالكاد قطع من النسيج، وتفوح منها رائحة النوم.. المكان يبث شعورًا بالحزن لا يمكن لبنديني أن يشرحه.

انظروا الآن لمقتنياته من الزجاجات البلاستيكية، زجاجات ماء سعة لتر أو ثلاثة لترات؛ لم يهتم ريينا مُطلقًا بإلقائها. الزجاجات والعبوات الكبيرة موزعة في كل ركن؛ ركل بنديني إحدى الزجاجات، كأنما يقوم بهذا بفرض شيء من النظام، لكنه لا يفعل سوى زيادة الفوضى. ومن الواضح أيضًا أن ريينا كان يتغذى طيلة هذا الوقت على الطعام الذي تطهوه النساء الهنديات في القرية ويبعنه في مكان متهدم بجانب القسم. وغالبًا كان يأكل شطائر أو فطائر: يشير لهذه الصواني الكرتونية، المُبقعة بالدهون، مُكومة على المائدة.

رغم هذا، كانت الملابس مُرتبة بشكل غريب. توجد قمصان وفانلات مُرتبة جيدًا فوق مقعد، بل يمكن اعتبار أن هناك شيئًا من التناسق في الدرجات، الألوان، كأنها ملابس رجل أنيق. لكن لا، إنها ملابس ريينا. بنديني ينظر لكي شيء باحتقار.

– إنه قذر للغاية.

بعد ذلك يقف أمام الكومبيوتر:

– هل يمكنك أن تخبرني لماذا يترك هذا مشتعلًا؟ إهدار طاقة بلا داع.

– وربما يكون قد تركه بينما ينقل الصور – قال جونثاجا–: إنه عمل يحتاج لوقت طويل، تركه يقوم بالنقل، وخرج ليفعل شيئًا آخر.

– حسنًا، ابحث إذن عن الصور الجديدة.

أطاع جونثاجا الأمر وهجم على الكومبيوتر. ليس لأن جونثاجا خبير في مثل هذه الأمور، لكنه أكثرهم درايةً.

في أثناء ذلك، كان لايبا مُهتمًا ببضعة دفاتر بسلك؛ يرفعها، ينظر لها بثبات، كان يبدو أنه يفحص المادة التي صُنعت منها الدفاتر ولا يقرأ المكتوب في الصفحات. بعد ذلك يقول:

– ربما يوجد هنا شيء مفيد.

– دعني أرى– وينزع منه الدفاتر وفي ذات اللحظة يُدرك أنه تصرف بفظاظة. شعر بالندم. شعر بأن هذه الأشياء هي التي تُبعده عن لايبا. حاول أن يعتذر، لكنه لا يعرف كيف.

– أنا متوتر قليلًا– كان هذا كل ما قال.

– لا تهتم يا (ريس) – قام لايبا بتهدئته–: يوجد الكثير من العمل. هذا هو السبب.

قام بنديني بالتركيز في الدفاتر. لا يوجد بها شيء مهم: ملاحظات متفرقة، قصيدة غير مكتملة، القصائد الرديئة التي لا يفعل بها ريينا أي شيء. على أية حال، استعاد بنديني مزاجه الرائق:

– اسمعا هذا...– وقرأ شطرًا بشكل سيئ.

ضحك لايبا وجونثاجا رغم أنهما لا يوليان الاهتمام الواجب لما يقرأ بنديني، كانا يضحكان من التوتر. ويصبحان أكثر توترًا عندما يعثر جونثاجا على أفلام بورنو في الكومبيوتر. افتتن جونثاجا بممارسة جنس فموي، فتاة شقراء تبدو ألمانية – جونثاجا يستطيع تمييز الألمان– تمتص زنجيًّا ضخمًا.

– انظر العاهرة – قال– : انظرا لهذه المجنونة.

كان لايبا ملتصقًا بالشاشة ومنجذبًا للشقراء الألمانية والزنجي، اللذين انتقلا من اللعق إلى الإيلاج الشرجي الكلاسيكي. يذهبان ويجيئان، الألمانية والزنجي.

لكن بنديني لم يهتم بالبورنو، فضَّل الدفاتر، كان هذا الجانب لدى ريينا يبدو له أكثر كشفًا وإمتاعًا، وربما كان أكثر مجونًا.

– إنه عاهر كبير هذا الشخص – قال–. وبعد ذلك جلس على مقعد ليواصل القراءة.

***

بيبو مع هؤلاء الصبية الثلاثة مرة أخرى. دبَّر اللئيم أمره لكي يتركه الشرطيون معهم في القسم، وانتهز بيبو الفرصة.

– هيا، لقد استرحتم كثيرًا.

– لقد استراحت أختك– قليل الأدب الذي قال هذا هو داميان، ربما أكثر الصبية نحافة وحزنًا. وفي الحقيقة، فقد أفلتت المزحة منه بدون قصد. لأن داميان لم تكن لديه رغبة في أن يقول هذه الأشياء، فجأة لم يعد يرى فيها ما يُضحك. بعد الطقس، والرقص المقدس الذي قاموا به مع الهندي لوخان، تغيرت الأشياء، شيء ما، ربما لا يمكننا أن نقول بدقة ما هو، لكنه أصبح مختلفًا. ربما كانت مزحة داميان مجرد ردِّ فعل أخير. وبيبو يراها هكذا؛ لهذا يبتسم ويكتفي بالسخرية:

– آه، ناصح!.

الصبية جالسون على الأرض في البهو، كل منهم بجوار الآخر، متلاصقون، ولا زالت وجوههم مُحملة بالنوم، ويسندون ظهورهم على جدار. كانت كوكو بين ساقي لويسيتو، كأنها تجلس فوق بيض.

اقترب بيبو من الصبية وانحنى ليصبح في ارتفاعهم تقريبًا. صبره ينفد بسبب نعاسهم.

– هيا، إنكم تستمرئون.

لكن الإجابة التي تلقاها كانت خليطًا من القوقأة والتملص من جانب الدجاجة، كأن الطائر يطلب منه أن يتوقف عن مضايقاتهم. الصبية لم يفعلوا أي شيء، ولا حتى الاجتهاد في فتح أجفانهم، على ذات الحالة السابقة.

حينئذ يقوم بيبو بالطقس التالي: امتص إصبعًا. ومرَّ بالإصبع الرطب على ما بين حاجبي كل منهم – داميان أولًا، وبعد ذلك لويس، وفي النهاية لوكاس. ورغم أنه يتردد للحظة أمام الدجاجة – التي بدا أنها تنتظر أن يقوم بيبو بامتصاص إصبعه ولمسها به أيضًا–، واكتفى ببساطة بالنظر لها بثبات. إنها طائر طيب، لكن ليس لدرجة جعلها شريكة في كل شيء.

على أية حال، فهذه الطقوس تختلط على بيبو. حتى الآن، كان قد ترك هذه الأمور بين يدي لوخان دائمًا، والذي كان كالحكيم – أو على الأقل، كان بيبو يعتبره حكيمًا–؛ تعلَّم البقية بقراءة مقالات متفرقة في صفحات على الإنترنت. امتصاص الإصبع، على سبيل المثال، كانت طريقة هندية: يُفترض أن اللعاب الذي بلل به الصبية سوف يقوم بتطهير شيء ما، الأعصاب، الوعي، الروح، من يدري، سوف يقوم بإفاقتهم أو يسمح لهم باستئناف حيواتهم بعد تجربة قوية. الهندي لوخان كان ينظر لبيبو باحتقار دائمًا كلما جاء له بأمر جديد مثل هذا: ((هندي غيور))، هكذا كان بيبو يفكِّر في تلك الحالات.

– انهضوا، يجب أن نذهب.

أول من نهض – رغم أنه قام بهذا بعد شيء من التكاسل وبعد أن حكَّ ظهره في الحائط وتثاءب مثل قط سمين– هو داميان: سار جارًّا قدميه بينما يهرش في رأسه بقوة، كأنما يريد أن يقتلع شعره – شعر أسود للغاية، وأيضًا قذر للغاية–، وما إن يصل إلى جانب بيبو حتى يُمسك بيده ويظل هناك، ناظرًا إلى صديقيه اللذين يبدءان، ببطء شديد، في تقليد خطواته. ضغط بيبو على يد داميان وابتسم متأثرًا.

الرياح التي تهب فجأة تملأ بهو القسم بالغبار، ورغم أن شمس المساء أكثر لطفًا، فلا زالت هناك، وتجعل التنفس صعبًا. لهذا يقوم بيبو باستعجال لويس ولوكاس.

– اللعنة، ماذا بكم؟ لا يمكن أن تستمروا هكذا. هيا بنا، هذه الرياح اللعينة تخنقني.

في النهاية يرحلون رغم أنهم يفعلون هذا على مهل. عندما يتحرك أحدهم يتوقف الآخر ويهرش، يخلع أحد نعليه ويهرش بين أصابع قدميه، وآخر ينجذب لشكل ما –بقعة رطوبة على سبيل المثال–، أو تلهو الدجاجة بنقر الهواء... ويصل التفكير ببيبو إلى أن الصبية وكوكو لا يشعرون بالدوار، وإنما ببساطة يتعمدون مضايقته. لكن لا، باستثناء الدجاجة – التي يصعُب الكلام عنها بمصطلحات بشرية– لم يكن الثلاثة الآخرون سوى خائري القوى.

أصبح القسم خاويًا، لكن أبوابه مفتوحة. يمكن لأي شخص أن يدخل. لكن

لماذا؟ لا يوجد أي شيء ذي قيمة. ولا حتى جسدا سارة والحمَّال كاررانثا – اللذين يجب أن نضيف لهما جسد الهندي لوخان، رغم أن هذا ظل أمام القسم مُغطى بقطعة خيش–، اللذين كانا ملقيين في البهو، كأنما نسيهما شخص ما.

18

ميلر، العجوز ميلر، كان شخصًا مملًّا، بالأحرى رجلًا مسكينًا. كان ميلر هناك، هادئًا في بيته، دون أن يتخيل – دون أن يهتم بتخيل– أن هناك مُتطفلًا يعيش في المسكن الخلفي. على أية حال، لم يكن أمرًا يثير قلقه: خلال سنوات من السفر عبر تشاكو، من الذهاب والإياب في هذه الطرق السيئة، طرق من التراب أو الأسفلت الذي يبدو أنه كان متشققًا منذ الأبد. بشاحنة – F100 شائهة الألوان قبيحة، قامت برحلات كثيرة، لها تاريخ طويل– صدم حيوانات (المدرع الكبير) التي تعبر الطريق، الحمير التي تتجمع لأكل الغلال التي تسقط من الشاحنات. خلال سنوات، عقود، قام باستخراج المياه من الآبار القذرة، لكي يصل ذات يوم إلى مخزون جوفي جيد؛ كما قام بمضاجعة هنديات، نساء لا يستطعن نطق كلمة بإسبانية سليمة.. وحقيقة هو أيضًا لا يتحدث كثيرًا، سواء بالإسبانية ولا بأي لغة، لكن قبل أي شيء لعدم وجود من يتحدَّث معه؛ لأنه في المرات القليلة التي أمكنه فيها هذا، قام بالتحدُّث.

كيف انتهى الأمر بألماني كهذا في تشاكو؟ هذا لا يهم الآن. ما يهمنا، على الأقل جزئيًّا، هو كيف يكسب هذا الشخص، ميلر، عيشه؟ في الحقيقة الإجابة ليست سرًّا غامضًا: كان يقوم بأعمال مؤقتة. أي شيء آخر يمكن أن يفعل؟ ومثل معظم الناس هنا في ((لاجونا فريا))، كانت أعماله المؤقتة تكليفات من منظمة VIDAS. إن كان ميلر يرغب في الراحة عندما بدأنا في الحديث عنه، فلأنه تحديدًا انتهى من أحد أعماله، مهمة بسيطة: التصوير. تصوير فتيات عاريات أو يرتدين كيلوت وحمالة صدر، وهو ما يعني بكلمات أخرى أنهن فتيات عاريات.

كان الأصدقاء في المنظمة يثقون به، بميلر، أكثر من أي شخص في هذه القرية البائسة. أم إنهم كانوا سيكلفون هنديًّا بأخذ الصور؟ لكن، إن كان هنود ((لاجونا فريا)) لا زالوا يعتقدون أن الصور تسلبهم أرواحهم! فمن أفضل من هذا الألماني إذن؟ وكان لا يسأل سوى الحد الأدنى الضروري، وأحيانًا لم يكن يسأل عن أي شي ما داموا يدفعون له.

رأى رييننا الباب مفتوحًا ودخل للتحية.

ـ مساء الخير...ـ قال.

نظر له ميلر كأنما ينظر إلى ما وراءه، إلى شيء بعيد. عينا الألماني الزرقاوان الصغيرتان أكدتا هذا الانطباع، انطباع النظرة التائهة.

ـ ادخل...ـ دعاه. كان يشاهد التليفزيون ويشرب بيرة، وعندما دخل ريينا بيت الألماني، قبل أي شيء، وفي حركة يمكن تفسيرها بالغريزية، ناوله الزجاجة لكي يشرب رشفة. كان ميلر يشرب من الفوهة مباشرةً. كان ريينا يُفضل رفض الدعوة، لم يكن يحب أن يشرب من الفوهة، خاصة مع التشارك في الزجاجة. لكنه كان لقاءه الأول بميلر، ولم يكن يريد أن يبدو متأففًا. عدَّ حتى ثلاثة ـ بذات الطريقة التي قام بها قبل أسابيع قليلة في ذات البيت، لكن مع الماء العطن بدلًا من البيرةـ وشرب رشفة كبيرة. رسم العجوز ميلر ابتسامة على وجهه.

ـ صحة، الصديق كان عطشان...

خلال الثانيتين اللتين استغرقهما في إنزال الزجاجة ووضعها مرة أخرى في يدي ميلر، انتهز ريينا الفرصة لكي يقوم بمسح جديد للبيت ومسح أول للألماني الضخم، الذي كان جالسًا على أريكة قديمة مُرقعة كيفما اتفق. لم يتغير الكثير منذ المرة السابقة. بالفعل، كان التغيير الوحيد هو وجود ميلر، هذا الحضور الذي سمح في ذات الوقت بدخول بضعة أشعة من الشمس عبر خصاص النافذة. لكن أثر أشعة الشمس كان قذرًا ومثيرًا للاكتئاب. من أجل هذا، فالعتمة أفضل.

ـ أنا أعيش في المسكن الخلفي ـ قال ريينا بنبرة مُذنبة، كأنما يعترف بخطيئةـ؛ قال لي العمدة أن أسكن هناك.

ـ العمدة... يا له من شخصـ لم تَبْدُ على ميلر أي تعبيرات عن الغضب لاقتحام مِلكه، بالأحرى كان تعبيرًا مُبهمًا: يمكن أن يكون على علم بكل شيء، أن ريينا يقيم في مسكنه، أو ربما يكون العمدة إيبانيث قد ورَّطه مرة أخرى.

ـ اسمي ريينا، أنا صحفي من مدينة ((ريسيدنثيا ـ لم تؤثر المعلومة الجديدة في ميلر، بالكاد حرَّك كتفيه قليلًا إلى أعلى، كأنما قد استطال. نظر

له رينا من جديد: كان الألماني يبدو مشلولًا. مشلول ضخم يتصبب منه العرق، وربما كان جلده يتقشَّر. بعد ذلك نظر إلى التليفزيون، الذي كان يحظى بجزء كبير من اهتمام ميلر. على شاشة التلفزيون كان هناك فيلم بورنوجرافي. لا يوجد أي شيء غريب: امرأة، رجل، وإيلاج. بدا أن ميلر يقرأ أفكاره:

ــ أنا أفضل الكلاسيكيات. الآن يقومون بأشياء صادمة، كأنما يتنافسون لمعرفة من هو الأكثر قوة.

توقف رينا عن مشاهدة البورنو منذ قرأ خبرًا في الإنترنت (ومتى إن لم يكن حينئذ): كان يقول إن مشاهدة البورنو كثيرًا تؤدي إلى العجز الجنسي. واصل ميلر شرحه:

ــ أشتري الأفلام من أحد المعارف في (لاباشيتو). لديه مجموعة مبهرة. كل ما تريد. كما يبيع أجهزة دي في دي أيضًا.

ولأن رينا لم يجد ما يقول، مدَّ يده طالبًا البيرة.

ــ ...إيه، من الممتع وجود رفيق أثناء الشراب.

هذه المرة لم يعدّ رينا حتى ثلاثة. تجرع الرشفة بدون تفكير. بعد ذلك جلس على الأرض، على يمين ميلر، ورغم أن الألماني ألحَّ عليه أن يأتي بمقعد لكي يكون أكثر راحة، ظل هناك.

في النهاية، أمضيا جزءًا كبيرًا من المساء في مشاهدة أفلام بورنو عديدة، كلها مملة إلى حد كبير. وقرب نهاية زيارة رينا سأل ميلر عن المنظمة، إن كان بالمصادفة يعرف شيئًا عن الناشطين البيئيين، عن فوشيك ورينوسو.

ــ شخصان طيبان ــ قال ميلر ــ: كانا يعملان على ألا تفتقد الفتيات هناك أي شيء (وعندما قال ((هناك)) أشار ميلر بذقنه وبسبابته إلى اتجاه ((ثيركيتو))).

ــ أي شيء مثل ماذا...؟

ــ ... من الطعام حتى الملابس. كانا يأتيان مرة كل شهر تقريبًا، أو كل شهرين، ويأتيان لهن بكل شيء.

ــ وهل لديك فكرة عما يمكن أن يكون قد حدث لهما؟

ـ يمكن أن يكون قد حدث لهما أي شيء. الناس هنا غريبة للغاية. هل لديك كومبيوتر. يمكنني أن أعطيك بضعة أفلام لتنسخها في الكومبيوتر.

بعد ذلك تحدثا قليلًا، بشكل أساسي عن الثيران التائهة. لم يمكن لريينا أن يُعيد الحوار إلى ما يهمه، إلى المنظمة، فوشيك، رينوسو، شيء ما يسمح له بممارسة الصحافة حول اختفاء هذين الشخصين. رغم أن الموضوع في الحقيقة لم يكن يشغله مُطلقًا. كان ميلر شخصًا بسيطًا، لا يعطي أسبابًا لكي يشك به المرء.

خرج ريينا من البيت ومعه أربعة أسطوانات دي في دي، سيقوم بعد ذلك بنسخها إلى الكومبيوتر. كلاسيكيات، كما يقول ميلر.

* * *

إن كان على ريينا أن يعترف بشيء، فهو أنه لم يأكل من قبل تيسًا مثل الذي أكله في بيت إيبانيث. قام (روبي) بطهيه، وكان أحد صديقي بيبو اللذين عرفهما ريينا في تلك الليلة الأولى ـ في ذلك الوقت كانت تلك الليلة قبل شهرين تبدو له نائية للغاية مثل حياته في ((ريسيدنثيا))ـ، تلك الليلة التي ذهبا فيها إلى ((ثيركيتو))، لكن الآن، أمام المشواة، كان (روبي) يقع منه موقعًا حسنًا، فتى هادئ وعاقل؛ لا يمكن فهم قدرته على الطهي جيدًا سوى بهذا.

ـ لا يجب تقليبه كثيرًا ـ شرح لريينا عندما اقترب من المشواة ليتعرف على طريقة الطهيـ؛ يجب تركه لكي ينضج بمفرده.

بشوكة مشواه، نزع روبي قطعة لحم بالقرب من الأضلاع وقدمها له.

ـ إنه كالزبد... ـ مدح ريينا، بفم ممتلئ. وقبل أن يبتلع قالـ: هذا لا يحدث بمفرده. بالطبع لا تتركه على النار وانتهى الأمر.

استقبل روبي المديح بهدوء، كمن اعتاد على أن يسمع مثل هذه الأشياء. بعد ذلك، اعترف بنبرة مرحة:

ـ إنها ثلاثة أسرار، لكن لا يمكنني أن أقولها لك: لن تصبح أسرارًا.

ـ لكن، يا لك من عاهر... ـ شعر ريينا بالثقة بسرعة، وسمح لنفسه بأنه يتكلم بحرية وأن يضحك قليلًا، وهو ما لم يكن مُعتادًا. البطل الذي اخترناه

شخص جاد.

انضم إيبانيث للمشواة، بينما يتحدث صارخًا:

– يجب أن نعترف أن أهل المدينة يُحسنون التصرف.

كان سعيدًا من أجل بيبو. كان إيبانيث يرى تحسنًا في ابنه، كان يراه مُهتمًّا بموضوع الشعر: لم يمكن لإيبانيث أن يحبس دموعه عندما غنى له ابنه أغنية التشكاريرا، عمله الأول. حتى دون أن تكتمل، كانت كلمات الأغنية تشتهر بين المعارف. كلهم كانوا يدندنون بها – رغم أن الدندنة كان شبيهة للغاية بأغنية ((ادخُلْ بيتي دون أن تطرق الباب))، لكن، من كان سيعترض؟–، وكانوا يدندنون بها بناءً على طلب إيانيث، وهو بدوره كان يلقيها على من يجد أمامه. القليلون في الحقيقة، لكن كان هذا كافيًا لكي تصبح الأغنية الرسمية للقرية، أو ما شابه. على الأقل إيبانيث كان يعتبرها هكذا.

– لا بد أن لديك موهبة يا ريينا، لماذا لا تتوقف عن المضايقة بموضوع المنظمة وجريدتك؟ انظر الآن: لقد خرج شاعر من تحت يديك.

رغم معرفته بأن شيئًا لم يخرج من تحت يده، كان ريينا فخورًا بعمله مع بيبو. بالفعل، لا زال الفتى فظًّا، وإلى حد كبير لا يمكن توقُّع أفعاله، لكن عندما كان يريد، يُصبح شخصًا يمكن التحاور معه. لكن على الأخص، كان بيبو يبث فيه روحًا جديدة: ريينا بدأ في الكتابة أيضًا. انتقل حماس بيبو إليه، وهكذا، شيئًا فشيئًا، أخذ ينطلق. بالطبع ما كان يكتب لم يكن سوى نسخ من قصائد أخرى، من أشعار أخرى، لكن أيًّا ما كان، كان يجعله يشعر بأنه أفضل.

لهذا، قبل بضعة أيام، وسط إحدى جلسات الورشة، توقَّف ريينا لكي يحكي لبيبو عن سارة: قال له إنه يحبها. بعد ذلك على الفور شعر بالندم. لكنه في الحقيقة لم يكن يستطيع أن يتحمَّل أكثر من هذا. كان يجب أن يتحدَّث مع أي شخص عن الموضوع، كان يجب أن يحدِّث شخصًا ما عن الأشياء التي يمر بها.

– لكن هذه الفتاة مومس– قال بيبو.

– أعرف هذا، لكن ماذا تريديني أن أفعل؟

– أن تكون أكثر ذكاءً، وليس متهافتًا هكذا. هل تريد أن تكون تلك المومس

خطيبتك؟

لرغبته في أن يشرح ما يمر به، حدَّثه ريينا عن أدائه الجنسي.

ـ أحيانًا لا أعرف ماذا يحدث لي ـ قال ـ، لكن مع سارة كل شيء على أفضل ما يرام.

أوشكت ضحكة على الصدور عن بيبو، لكنه كبحها في الوقت المناسب. فجأة شعر بعدم الراحة. فضَّل النهوض وتسخين المزيد من الماء للماتيه. كأنما ليخفف قليلًا من الأجواء، جرَّب أن ينصحه بتمارين للتنفس:

ـ ركِّز في التنفس عميقًا ـ قال له ـ: التنفس هو كل شيء.

لكن لم يكن هذا ما يحتاجه ريينا. أو نعم، من يدري؟!

ما حدث أنهما لم يتطرقا ثانيةً لموضوع ريينا العاشق، ولا للقضايا الجنسية. في البداية لأن ريينا لم يكن يتفق تمامًا مع بيبو: الفتاة كانت مومسًا، لكنهما لم يستمرا لأنهما، قبل أي شيء، لم يعرفا كيف يواصلان، كيف يخرجان من البئر التي سقطا فيها، خاصة مع محاولة بيبو الفاشلة للنصيحة بشيء ما. كما لم يفدهما أن يعود بيبو للموضوعات الأدبية:

ـ لديَّ أفكار لكتابة أشياء أخرى ـ صرَّح ـ: وليس أغاني تشكاريرا فقط.

لحسن حظهما، مرت الأيام ولم يكن هناك بد من التجاوز. واصلا جلسات الورشة، واصلا، على الرغم من الحر، تناول الماتيه ـ أصبح ريينا يحب الماتيه بعد كل هذا: أصبح يساعده على الهضم ـ، واصلا الحياة الروتينية.

كان إيبانيث هو من اقترح عقد وليمة الشواء، كان يراها كوسيلة لتوطيد الصداقة بين ابنه وريينا.

ـ بالإضافة إلى هذا ـ قال له العمدة بينما كان الاثنان، العمدة وريينا، لا زالا لصق مشواة روبي ـ: ما فعلته مع بيبو لا يُقدر بمال.

ـ نعم يُقدَّر بالمال ـ ردَّ ريينا بنبرة مازحة ـ: إنها خمسمائة بيزو.

ضحكا كثيرًا حتى إن شخصًا كان يمكنه أن يعتقد أن تلك الصداقة كانت صداقة حقيقية. بعد ذلك أخرج ريينا كاميرا الصور وبدأ في تصوير رفاقه في الشواء، أولًا كل واحد على انفراد، وبعد ذلك صور جماعية: روبي بجانب

المشواة، بينما يُقدِّر حالة التيس؛ إيبانيث وبيبو، متعانقان بينما يرفعان أكواب الشراب، بيبو بمفرده، بينما يضرب صدره بإحدى قبضتيه.

تألق رينا في استخدام النظام الأوتوماتيكي في الكاميرا: استطاع الوصول إلى خلفية نموذجية لكي يظهروا كلهم، بما فيهم هو، في صورة جماعية بالمشواة كخلفية تطلق الدخان.. بقية الليلة مضيت بين التيس ولفافات الماريجوانا والبيرة وصرخات زاعقة. وبالطبع، أغنية بيبو، التي غنوها جميعًا بصوت عال، أربع مرات على الأقل.

19

يعرف بنديني أنهم كرجال شرطة ليسوا جيدين. كانوا ينساقون خلف أي شيء، خلف صور وأفلام بورنو، خلف كتابات شخص شاذ، خلف اقتراحات شخص ماجن... في أثناء ذلك، يمر عليهم الوقت، ويتم حل الشيء المهم حقيقة في مكان آخر، أو لا يمكن حله.

– هيا بنا، أطفئوا هذا.

– انتظر يا ريس حتى ينتهي.

– كم تحبون الاستمناء، أوقفوا هذا!

أسرع لايبا وجونثاجا لإيقاف الفيلم. الوقت الذي أمضياه مع بنديني يجعلهما قادرين على التمييز بين مجرد لحظة من الضجر وبين أزمة حقيقية. كما يعرفان بالإضافة إلى هذا، أنهم عملوا اليوم أكثر من المعتاد، حر كثير، الكثير من الموتى والحوادث.

– لقد انتهينا يا ريس– قال جونثاجا.

– لقد انتهينا من الهراء– قرر بنديني ألا يركنوا للراحة مجددًا. شعر بألم شديد في معدته، كأنه قد تناول عصير برتقال وماتيه في ذات الوقت.

– ماذا سنفعل؟ –لايبا يقف منتصبًا أمام رئيسه. بنديني، من جانبه، كان يريد أن يفرغ غضبه، لكن ليس مع لايبا.

رفع دفتر ريينا الذي كان يقرؤه قبل لحظة وهزَّه أمام وجهي مرءوسيه.

– هذا الشخص قد يكون مريضًا، لكن انظر: يفعل شيئًا ما بحياته.

قال لهما أيضًا إن الوقت الذي أهدروه بينما يسيل لعابهم (استخدم هذا التعبير ((يسيل لعابهم)))، لا يمكن تعويضه.

– فكِّرا – قال لهما–، هذه الفتاة الميتة: كانت عاهرة.

لايبا وجونثاجا يحنيان رأسيهما موافقة، في ذات الوقت يتابعان بأعين متوترة حركة دفتر ريينا، كأنما إجابات كل شيء توجد هناك.

– ... المكان الوحيد الذي لم نذهب إليه هو المكان الذي تعيش فيه

العاهرات.

– ((ثيركيتو))– قال لايبا؛ نطقه بهمس، كأنما أدرك شيئًا ما في التو.

– إن سمحت لي يا ريس – شارك جونثاجا–: باستثناء هذا المكان، لم نذهب إلى أي مكان تقريبًا.

توقف بنديني عن هز الدفتر وفتحه: قرأ وتنهد.

– إن رينا هذا لعاهر كبير...

قبل أن يخرجوا، حمل رجال الشرطة كومبيوتر رينا كدليل – لكن دليل على أي شيء؟–. أضاف بنديني الدفتر، الذي يحمله تحت ذارعه، وعلى الأرجح يحتفظ به كشيء مسلٍّ وليس كدليل.

ويستكمل الشرطيون عملهم، اختاروا قميصين من تلك التي تركها رينا هناك، جيدة الطي فوق مقعدة. وتركا قميصين، كأنما هذا الاعتدال يجعل السلب أقل وضوحًا.

لايبا، بقميص ذي خطوط طويلة زرقاء وبيضاء، هو أكثرهم سعادة:

– بهذا يجب أن أحمل فتاة إلى الفراش...

– بالطبع– ردَّ عليه بنديني. وضع ذراعًا فوق كتفيه ووقفا معًا، بنديني ولايبا، أمام الباب. عندما فتحاه شعرا مرة أخرى بقوة الرياح، التي تأتي محملة بالأتربة.

– اللعنة– قال بنديني وغطى وجهه بالدفتر وأمر جونثاجا، الذي كان الأخير في الخروج، أن يغلق الباب بسرعة.

– .. سيمتلئ بالتراب، وسيحملوننا المسئولية.

استجاب له جونثاجا وأسرع لإغلاقه، لكن بعد ذلك ينظر باهتمام كيف يهبط بنديني ولايبا السلالم معًا – كأنهما زوجان، بينما يحتميان من الرياح– ويشعر مرة أخرى بالغيرة كما كان الأمر في الماضي. لم يكن مهتمًّا بأن تضربه الرياح في وجهه، ولا أن تمتلئ عيناه بالغبار. ظل واقفًا، بينما ينظر. في النهاية يتخذ قراره ويفتح باب المسكن مرة أخرى على مصراعيه.

– وفيم يعنيني هذا – قال–؛ فليأت هو ليغلق الباب إن أراد.

وبعد ذلك ينزل.

* * *

– هل هذا صديقك؟ – سأله هانك–: هذا الضب قتل بيرالتا.

شق على ريينا، لكن بعد قليل يُدرك أن ((بيرالتا)) هو لقب عائلة سارة. ((الصديق)) الذي يسأل عنه الألماني التوبي لم يكن سوى العجوز ميلر، ألماني حقيقي. كان ممددًا على ظهره، مُقيدًا بشرائط جلدية، بذراعيه وساقيه مفرودة حتى الشد على العضلات. بالإضافة إلى هذا كان عاريًا، وفي فمه يوجد شيء كان ريينا يعتقد أنه لفافة حلوى. لكنه لم يكن لفافة حلوى وإنما خرقة مثبتة على فمه بشريط لاصق.

نظر ريينا إلى جسد الألماني الضخم: كان يبدو أكبر حجمًا على هذا الحال، ولونه أكثر وردية أيضًا. لكن ريينا كان يفضل ألا ينظر كثيرا، من جانب بسبب الخوف، لكن على الأخص لأنه لم يكن يريد أن يرى نفسه متورطًا في هذا الموضوع. كان يشعر بالضيق من سماع الصوت الصادر عبر الكمامة، متتالية من أصوات حرف الميم وتبدو هكذا: ((مممممم... مممم)).

– هل تعرفه أم لا؟ – سأله هانك مُلحًّا.

مسكين ميلر، فكَّر ريينا، في أي شيء ورَّط نفسه. لكن إن كان على هذا الحال، فلابد أنه فعل شيئًا.

تحديدًا، كان ميلر في الغرفة التي كانت سارة تستخدمها.

لكن أول شيء رآه ريينا عندما جذبه هانك داخل ((ثيركيتو))، كانت الوجوه الناعسة والقبيحة للعاهرات. كان يعرفهن جميعًا، لكنه لم يتبادل كلمة واحدة مع أي منهن ولم يكن يعرف أسماءهن، باستثناء ميريام، التي كان وجهها يبدو مُتعبًا ومنفرًا مثل الباقيات، كأنما شُفين على التو من الأنفلونزا. الفتيات كن يرتدين ملابس وقت الراحة، بنطلونات قصيرة، فانلات وشباشب، بعضهن بالسروال الداخلي. كن تسعة، وكانت شعور التسعة مشعثة للغاية، في خصلات، شعور جافة للغاية، كأنها شعور دُمَى.

كن يجلسن في دائرة، موزعات على مقاعد وعلى طاولة البار، ويتبادلن وعاءين من الماتيه. كان يبدو أنهن في اجتماع عمل، وهو أمر مرجح للغاية.

قام ريينا بالتحية بحركة من رأسه وبشفتيه مزمومتين، لكن لم يرد أحد على تحيته. لكن إحدى الفتيات حدَّثت هانك:

ــ وهذا؟ــ سألته.

ــ كان يأتي دائمًا إلى بيرالتا ــ ردَّ الضخم.

وقبل أن يستمروا في الحديث، صدر صفير من حقيبة ريينا، كان صفيرًا حادًّا وعاليًا. تركهم جميعًا في حالة ترقب.

ــ هل هي مكالمة؟ هل لديك تليفون محمول هنا؟ــ سألت الفتاة التي تحدَّثت من قبل.

حرَّك ريينا رأسه نافيًا، وبدأ في فتح الحقيبة. الفتيات، وهانك أيضًا، كانوا مترقبين، كأن ريينا يمكن أن يُخرج سلاحًا. في النهاية، عندما أخرج ريينا الببغاء ــ ممسكًا به بحرص ربما كان مُبالغًا فيه، كأن الطائر من الزجاج، ويوشك على الوقوع في أي لحظة ــ هدأت الوجوه والأنفس. حينئذ تحدثت ميريام:

ــ أخرج هذا الحيوان القذر من هنا ــ قالت هذا بابتسامة، وهو ما ساعد ريينا على الهدوء أيضا.

ــ اسمه كوتو ــ قال ــ أحد جناحيه جريح.

ــ ــ دعني أرى ــ قرَّب هانك إحدى يديه إلى يد ريينا التي تحمل الببغاء. إلى جانب يده، كانت يد هانك كقدم ضخم، قدم مليئة بالتشققات. أعطاه ريينا الطائر خائفًا من أن يسحقه هانك، بسبب خشونة يديه أكثر من فعل شرير محتمل. لكن في النهاية عندما رأى كيف يداعب سبابة العملاق الرأس الصغير للببغاء، مرفقًا المداعبة بصوت رفيع ناعم يقول: ((مسكين كوتو، مسكين كوتو))، اعترف بأن لهانك خبرة أكثر منه أو على الأقل حرصًا أكثر في معاملة الطيور.

لكن سرعان ما انتهى الهدوء؛ لأن الفتيات أمرن هانك بأن يُطلع ريينا على ما يوجد في غرفة بيرالتا. اندهش ريينا لإشارتهم إلى سارة بهذه الطريقة، بلقب عائلتها، لكنه لم يكن سيناقشهم في هذا.

كان الآن أمام ميلر، ولم يقرر بعد ما يناسبه: أن يقول إنه يعرفه، أم لا، إنه

لا توجد لديه أدنى فكرة عن هذا الشخص. استبقه هانك وقدَّم له الحل:

– لا يهم – قال له–: تعال، سأريك شيئًا في الخارج.

خرجا من الباب الخلفي. كان ريينا يتبعه مثل طفل، كأنما هانك سيطلعه على شيء تقع مسئوليته على عاتق ريينا. بالفعل، كان يشعر بالذنب إلى حد ما. سرعان ما تساءل إن كان هانك سيعيد له الببغاء أم لا.

– هيا يا رجل – استحثه العملاق، الذي أصبح في الخارج– أغلق الباب بسرعة، إذا امتلأ المكان بالغبار ستغضب الفتيات منا.

أغلق ريينا الباب وغطى عينيه قليلًا من دوامة الغبار التي تثيرها الرياح، ووقف إلى جانب هانك.

– يبدو أن لديك مشكلة مع الأبواب.

ابتسم ريينا، معتقدًا أن هانك يحدثه مازحًا، لكن وجه العملاق لم يكن يتحرك، يبدو من الحجر.

– انظر لهذا – قال له في النهاية– وقاده إلى البئر الموجودة في نهاية البهو.

مثل كل آبار ((لاجونا فريا))، كان تبدو مُهملة، نَمَتْ على حافتها أعشاب برية، وحولها الكثير والكثير من التراب. لا يمكن لشخص أن يقول إن هذا المكان كان مصدرًا للماء ذات يوم.

كانت فوهة البئر مُغطاة بلوحين صدئين من الصاج، وكانا بالإضافة إلى هذا ثقيلين للغاية. رغم هذا أزاحهما هانك كأنهما من الريش بيد واحدة، كانت اليد الأخرى تحمل الببغاء. بعد ذلك أمر ريينا أن يطل وينظر في الداخل.

– لا أرى شيئًا – قال ريينا– توجد رائحة تعفن فقط.

– انظر جيدًا، انتظر حتى تعتاد عيناك.

بعد ثانية استطاع ريينا تمييز زوجين من العيون التي تنظر له من أسفل. شعر برعشة، شعر بخوف، خوف أكثر مما سبق.

– وهذان – سأله هانك– ألا تعرفهما أيضًا؟

20

تحدَّث إيبانيث عن ميلر مُجددًا، لكن بذات العشوائية المثيرة للأعصاب كما في المرة السابقة، عندما قال لريينا إن ميلر رجل طيب. الآن يقول شيئًا آخر:

ــ في الحقيقة لم يعرف أحد مُطلقًا ما يفعله ذلك الشخص.

كان بيبو قد جمعهم في قاعة البلدية من أجل جلسة تأمُّل. لم يواجه مشاكل مع أبيه، لكن شق عليه إقناع ريينا؛ واضطر للاستعانة بمهارة إيبانيث.

ــ لن يضيرك هذا في شيء ــ قال له العمدة ــ، وسيشعر بيبو بالسعادة. هذا سوف يساعده.

لكن كان وجه إيبانيث، والتعبيرات عليه، هي أكثر ما أوحت لريينا بأنه من المناسب أن يذهب لتلك الجلسة. كان وجه إيبانيث كالمجنون. كان الهندي لوخان في تلك الجلسة أيضًا. كان يقوم بدور المساعد لبيبو: كان يضع بضع بطانيات حمراء على الأرض بينما يتمتم بصلاة ما، أشعار لم يفهمها ريينا. بعد قليل بدأ المزيد من الهنود في الوصول، وأخذوا يجلسون في هدوء وصمت فوق البطانيات. يجلسون مثل هنود كومانشيه، فكَّر ريينا. معظمهم كن نساء، تعرَّف ريينا بينهن على البعض ممن يبعن له الشطائر والفطائر. رغم أنه أتى بإيماءة ودودة لم ترد أي منهن عليه.

ــ اجلس بجانبي ــ قال له إيبانيث.

ظهر بيبو بعد عدة دقائق. كانت ملابسه كالمعتاد، فانلة بحمالات وبنطلون واسع فضفاض، كل شيء أسود، حتى الصندل. تحدث خلال دقيقتين مع لوخان ــ بصوت خفيض كأنما يتناقشان حول أفضل طريقة للبدء ــ وبعد ذلك احتل كل منهما مكانه. كان لوخان يوحي بما يشبه الضجر. شعور بأنه لا يشعر بالراحة.

ــ لوخان لا يؤمن كثيرًا بالتأمل ــ قال له إيبانيث ــ دائمًا ما يتناقشان.

أول شيء فعله بيبو هو شكر الحاضرين على وجودهم، وطلب منهم أن يغلقوا أعينهم وأن يشعروا بالصمت، ببساطة. وقال كلمة ((يشعروا)) بحماس كبير.

بسبب الضجر أكثر من الاحترام، لم يُطلق ريينا قهقهة. كان يشعر أن كل هذا ليس سوى وقت ضائع. حتى إنه فكر في الورشة الأدبية: كانا قد أجَّلاها من أجل هذا، من أجل هذا، من أجل التأمل. نظر بطرف عينه إلى إيبانيث: كان العمدة يتَّبع إرشادات ابنه، يتنفس بعمق، الشهيق والزفير عبر الأنف.

اعتقد ريينا أنه لن يتحمَّل، أن صبره لن يدوم كثيرًا، وفي أي لحظة سيرسل كل شيء إلى الجحيم. في تلك اللحظة كان بيبو يحدثهم عن ((الاستسلام من أجل التخلي عن الأنا))، عن ((احتلال مكان في الشبكة الكوكبية)). بالإضافة إلى هذا طلب منهم تغيير أوضاعهم، أن يستندوا على ركبهم، وبينما كان يطيعه، فكَّر ريينا في مفصل الركبة، عن الألم الذي لا يُطاق الذي سيسببه له هذا الوضع.

لكن بعد ثانية واحدة تغيَّر شيء ما. تحدَّث بيبو عن الحب.

ــ خلال أربعين دقيقة ــ قال ــ سنقول: ((أنا حب)) فقط. لن نقول شيئًا آخر: ((أنا حب"".

وهكذا، مرة بعد الأخرى، خلال أربعين دقيقة، ملأت مقولة ((أنا حب)) الصالة مثل أنشودة دينية. الصدى الذي يسببه التكرار كان يصيبه بالصداع، لكن حينئذ، بدون أن يسعى لهذا وبدون أن يتوقَّعه، فكَّر ريينا في أولجا، امرأته السابقة. شعر أنها هناك، معه، في وسط التأمُّل، متعانقين.

كان بيبو يتحدَّث عن أهمية العفو.

ــ تخيلوا صورة ــ قال لهم ــ شخص ما سبب لكم ألمًا، وبعد ذلك اعفوا عنه.

وحينئذ شعر ريينا أنه قادر على العفو عن أولجا ــ لكن في ذات الوقت كان يتساءل، عن أي شيء يجب أن يعفو عنها، إن لم تكن مذنبة في أي شيء ــ أنه قادر على أن يتخلص منها، أن يودعها إلى الأبد، وأن ينهي الحداد.

بكى. شعر كيف تهبط الدموع على وجهه. أراد أن يكبح بكاءه، لكن كان هباءً. الدموع كانت تسقط من تلقاء نفسها، لم يكن شيئًا يمكنه أن يتحكم به.

أكثر لحظات التأمل حدَّةً وصلت عندما طلب منهم بيبو ــ رغم أن ريينا في تلك اللحظة كان يشعر أن أي إرشاد من بيبو كان موجهًا له هو فقط ــ أن

يفكروا في آبائهم. وعلى الأخص أن يفكروا في أمهاتهم أكثر من آبائهم، أن يقوموا بالتركيز إلى أقصى حد، حتى يشعروا بما شعرت به أمهاتهم أثناء الحمل، أثناء الوقت الذي كان المشاركون في التأمل يوجدون داخل أحشائهن.

ــ فلنشكر أمهاتنا ــ قال بيبو.

فكَّر ريينا في أمه، في تلك المرأة كبيرة الثديين، طويلة القامة. ابتسم. كان يحب أمه كثيرًا. كانت أمًّا جيدة، أمًّا جيدة. شعر برغبة في الجلوس معها، أن يحكي لها عن أحواله. شعر برغبة في أن يكون بين ذراعيها، أن تضمه أمه إلى صدرها وتقبِّل وجنتيه. هذا ما كانت أمه تفعله عندما كان طفلًا. من كثرة الابتسام بدأ يشعر بالألم في فكيه وصدغيه. حينئذ حاول العودة إلى تعبير محايد، لكن كان هذا مستحيلًا. بدا أن وجهه مصنوع من اللبان، من المطاط. أخذ جسده يفرز العرق، قبل أي شيء بسبب الخوف. كان يخشى أن يؤدي كل هذا التغير في تعبيرات الوجه إلى نوع ما من الشلل. كما لم يكن قادرًا على أن يفتح عينيه. بكى مرة أخرى.

ــ هيا مرة أخرى: أنا حب ــ صوت بيبو بهذا التوجيه الجديد أعاد له شيئًا من الهدوء، لكنه لم يكن كافيًا لكي يتخلَّص من الخوف.

مع البدء من جديد في ((أنا حب))، اكتشف ريينا أنه يفكِّر في سارة. رغم أن بيبو كان قد أشار إلى عدم لياقة أن يختلط المرء أكثر من اللازم بمومس، كانت نصائح بيبو في تلك اللحظة من التأمل لا تعني الكثير بالنسبة لريينا. كان عاشقًا، لا يمكن فعل أي شيء. تخيَّل نفسه بين ذراعي سارة وعاد للبكاء، هذه المرة من البهجة.

عندما انتهى الأمر، كان ريينا ذاهلًا. كان التأمُّل قد دام أكثر من ساعتين.

ــ الوقت يتبخر ــ قال له إيبانيث. كان العمدة يبدو غير مهندم، كان وجهه يحمل ذات التعبير المجنون كالبداية، لكنه الآن كان مشعث الشعر ومتعرقًا، تقريبًا لم يكن إيبانيث ذات الشخص الذي بدأ التأمل. وشكَّ ريينا أنه أيضًا لم يكن ذات الشخص.

ملئوا ماءً من أجل الماتيه، من جهاز الماء مباشرة، ودخلوا مكتب إيبانيث. هناك، لكي يقول شيئًا، تحدَّث ريينا عن لقائه مع ميلر، عن المساء الذي

أمضياه في مشاهدة أفلام بورنو.

ــ خذ حذرك من هذا الشخص، يُقال إنه يضاجع أي شيء ــ قال له إيبانيث، ورغم أن ريينا فهم التحذير كمزحة، لم يَرَ أن العمدة مُهتم بإيضاح الأمور كثيرًا، وإنما على العكس: قال له إنه يشعر بالندم لأنه أرسله ليعيش في تلك الشقة. ((إنه قريب منك للغاية))، قال له.

ــ لا يبدو رجلًا خطرًا ــ قال ريينا، لكن إيبانيث قاطعه على الفور.

ــ إنه يقتل الناس ــ قال له ــ، مقابل المال.

ــ إلى هذا الحد؟

ــ يُقال إن هذا ما يحدث: إلى هذا الحد.

بعد ذلك غيَّر إيبانيث الموضوع، إلى حد ما بشكل مفاجئ، وفي ذات الوقت بشيء من البهجة.

ــ سأسافر يا ريينا ــ قال ــ سأقوم بإجازة. العمدة يجب أن يكون متجددًا، وإلا فإنه لن يؤدي عمله جيدًا، وسيتضرر الآخرون ــ توقف ليمتص من وعاء الماتيه، بعد ذلك أتى بإيماءة غريبة، كأن لسانه قد احترق بالماء الساخن، وواصل ــ: يجب أن نفكِّر في الآخرين يا ريينا. وإن لم يفكِّر المرء في نفسه، لن يمكنه أن يفكر في الآخرين. بيبو جعلني أدرك هذا. لا يوجد شيء أجمل من أن يقوم ابنك بتعليمك شيئًا ما.

فكَّر ريينا في كلمات إيبانيث، وقال لنفسه إن هذا حقيقي، إن العمدة لم يكن يقول ترهات: عندما يلتقي بسارة سيحدثها عن إنجاب أبناء.

لا زال واقعًا تحت تأثير التأمل.

* * *

سارة، الليلة الأخيرة مع سارة. كيف تتخيلون الليلة الأخيرة؟ ألم تتخيلوها مُطلقًا؟ لا يهم. الليلة الأخيرة مع سارة لم تكن ما انتظره. حقيقة، لم يكن المسكين يعرف أنها ستكون الليلة الأخيرة. لهذا لم يهتم كثيرًا وقال لنفسه إن الحديث معها، قول كل شيء يرغب فيه، يمكن أن ينتظر لليالي التالية. بالإضافة إلى هذا، كان قد دفع ليالي كثيرة، ولهذا فإن ليلة أخرى أكثر أو أقل،

لن تصنع اختلافًا.

كانت سارة قد بدأت تفصح عن مخاوفها:

ــ لدينا مشاكل هنا ــ قالت له.

ــ أي مشاكل يمكن أن تعانوا منها؟ــ ردَّ هو.

لم يرغب في قول هذا. كانا مستلقيين، كان قد بدأ في خلع ملابسه وصدرَ عنه الرد بشكل آلي. كان ريينا يستمتع. كان قد تخلص من خوفه من ثيركيتو، من تلك الغرفة التي توشك على التهدم، من رائحة الرطوبة الدائمة، كان يشعر بالراحة. لكنه الآن يُطلق إجابة غير لائقة، بل فظة.

نظرت له سارة باحتقار. كان يداعب شعر عانته، حركة لا إرادية يقوم بها عندما يكون مسترخيًا، تقريبًا في سلام. كانت تعرف كيف تصبح بغيضة بالنسبة له، وفعلت هذا: سألته بنبرة عنيفة إلى حدٍّ كبير عما يريد، إن كان يريد أن تمتص عضوه.

لاحظ ريينا برعب كيف ينكمش عضوه، كيف تعود الأفكار السيئة، أكثرها بغضًا إلى رأسه، أمسك بالملاءة وتغطى حتى الخصر.

ــ نعم أريد ــ قال ــ، لكن لِمَ تحدثينني هكذا؟ لماذا هذا المزاج السيئ؟

لم ترد سارة على الفور. كان يبدو أن هذا التعبير ((المزاج السيئ)) يصيبها بالحيرة: لم يكن تعبيرًا معهودًا لدى ريينا. استغرقت وقتًا حتى بدأت في الكلام. قالت إن المشاكل تأتي من جانب مُلَّاك ((ثيركيتو))، هؤلاء الأفراد في منظمة: VIDAS.

ــ أصبحوا عنيفين ــ قالت ــ هناك فتيات لا نعرف مكانهن. منذ عامين لا يعرف أحد مكانهن ــ لم تكن ترغب في هذا، لكن بعد قليل بدأ صوتها يفقد تماسكه، يمكنها أن تنخرط في البكاء في أي لحظة ــ. يحسبون الوقت: أن المرء يعمل ساعات كثيرة، أن المرء يعمل ساعات قليلة. يبدو أن عدد السكان ينقص في هذه القرية، لا ذنب للفتيات في عدم وجود عمل.

حاول ريينا أن يتذكَّر: كان متيقنًا من أنه دفع تلك الليلة. هذا جعله يشعر بهدوء أكثر، وأنه أقل حقارة أيضًا.

رغم هذا، وجد نفسه مضطرًّا للسؤال عن الناشطين البيئيين. لقد جاءا إلى

((لاجونا فريا)) من أجلهما. شعر بالذنب – من بين أشياء أخرى كثيرة كانت تجعله يشعر بالذنب– لأنه لم يعد يهتم بهما.

– يُقال إنهما شخصان طيبان – قال– لا يؤذيان أحدًا.

– من قال لك هذا؟– بدت سارة غاضبة.

– لا أعرف – تمتم ريينا–. حسنًا، نعم أعرف: ميلر، الألماني مالك مسكني. قال إنهما يكلفانه بأعمال وإنهما يأتيان بأشياء لَكُنَّ. إنهما يعتنيان بكُنَّ.

نظرت له سارة باهتمام أكبر، كأنما تولَّد لديها فضول جديد بريينا، كأن ريينا أصبح شخصًا آخر فجأة. أكثر بلهًا أو أكثر غباءً، لكن شخصًا آخر.

ظلت ساكنة صامتة، في انتظار أن يواصل الكلام.

– لم يَبْدُ هذا غريبًا – واصل، بينما ينظر للسقف بثبات، بدا أنه يتحدث إلى السقف أو لشيء أبعد، للسماء–: شخصان مهتمان بالبيئة يمكنهما أن يهتما منطقيًّا بأحوال فتيات مثلكن، يعملن في ظروف متردية.

تحركَّت بتوتر. سعلت سعلة خفيفة؛ لم يعد يبدو أنها توشك على البكاء، وإنما كانت توحي بأنها تريد أن تذهب. لكن الذهاب إلى أين؟

– هذان الشخصان هما من كانا يأتيان للتأكد من أننا نقوم بعملنا– قالت في النهاية.

لم تعط ريينا وقتًا ليجيب. كما لم تكن ترغب في سماعه. هجمت عليه، لكن بطريقة ميكانيكية، بل بيروقراطية – ليس بحنو مرات سابقة–، وبدأت في مداعبته.

بينما كانت فوقه تحدَّثَ ريينا:

– لا بد أن ميلر لا يعرف كل شيء – قال.

– هذا العاهر هو أسوءهم – واصلت إيقاعها المعتاد، بدت كعامل ضجر بكل شيء.

في النهاية لم يحدث أي شيء. حتى إن ريينا جرَّب تمرين التنفس الذي أوصاه به بيبو. ظلا صامتين ساكنين.

كان ريينا ينتظر أن تكون الليلة التالية أفضل.

21

أوقف الشرطيون عربة الدورية على مسافة اعتبروها حذرة من ((ثيركيتو)). لم يرغب بنديني في لفت الأنظار كثيرًا. كان يريد إلقاء نظرة على الأماكن المحيطة، كان يعتقد أنهم يقتربون من نقطة مفصلية، أو على الأقل نهاية يوم العمل. كان بنديني يريد أن ينتهي هذا اليوم السيئ بسرعة.

ـسنحيط بالمكان ـ قالـ سيظل أحدنا في الواجهة والاثنان الآخران سيذهبان للجانبين. لكن في صمت وبحذر. مفهوم؟

ـالرياح ستضايقنا قليلًاـ قال جونثاجا.

لكن لايبا يفكر بشكل مختلف:

ـبهذه الرياح وهذا الغبار لن يوجد أي شخص في الخارج.

لم يشارك بنديني في الحوار. سواء أعجبهما أم لا، برياح أو بدون رياح، يجب أن يقوموا بهذا.

ـهيا بنا ـ قالـ: فلنتوقف عن الهراء.

نزلوا من العربة بينما يغطون وجوههم. كان الغبار الذي تثيره الرياح يضايقهم أكثر من الرياح ذاتها. الكلام بحساب، فتح الفم بأقل قدر ممكن، وإلا فإن التراب سيصل إلى الأمعاء. رغم هذا، كان الموقف يبدو مضحكًا للايبا:

ـسيدخلنا التراب من فتحة الشرج.

تحركوا كما خططوا، بحذر. لكن عندما وصلوا إلى واجهة ثيركيتو، واجهتهم المعضلة الأولى: من سيقوم بتغطية الجانبين، ومن سيبقى أمام الواجهة؟ عرض جونثاجا أن يبقى هو، لكن هذا العرض تحديدًا هو ما يثير شكوك بنديني: لماذا يريد أن يبقى هنا؟ هل المكان هنا في الواجهة أكثر أمانًا؟

ـمن الأفضل أن أبقى أنا ـ قالـ، اذهبا أنتما.

لكنه يشعر بالحيرة مرة أخرى: جونثاجا لا يعترض، كأن الأمر سواء بالنسبة له.

ـحسنا، فلنرَ ـ قال حاسمًاـ سيبقى لايبا، وليذهب كلانا، كل منا إلى أحد

الجانبين.

في أثناء ذلك اقتربت سيارة. دوامة الغبار التي تغطيها تبدو ضبابًا أكثر منها عاصفة ترابية. تقدَّمت السيارة حتى توقفت أمام أبواب ((ثيركيتو))، بجانب رجال الشرطة، الذين ظلوا هادئين إزاء هذا الظهور المفاجئ. بالطبع كانت السيارة سي 3 الخاصة ببيبو. من الداخل تصدر موسيقى عالية للغاية. أغنية تشكاريرا، أي شيء آخر يمكن أن يكون؟

بدا الضجر على بنديني: كل هذا الحذر، كل هذه الحيطة لكي لا يلفتوا الأنظار، ويظهر بيبو هكذا، بهذا الضجيج!

–اخفض – صرخ به– اخفض الصوت يا غبي.

لم يستمر الصوت عاليًا فقط، وإنما جعل بيبو العادم يزأر، لكي ينصهر الصخب والموسيقى مع الجو. الآن لم يعد يفيد أن يتخفوا، من العبث أن يواصلوا التصرف كمحققين سريين.

في وسط هذه الفوضى، توفر وقت لبنديني لكي ينفث غضبه مرة أخرى في جونثاجا، الذي نظر بإعجاب إلى السيارة سي 3 وقال: ((هذه الماكينة يمكنها أن تطير)).

في النهاية نزل بيبو من السيارة، بين قهقهات وصرخات عالية. لا زال بالسروال، لكن على الأقل أضاف فانلة بحمالات بيضاء إلى ملابسه.

في ذات الوقت، يهبط الصبية الثلاثة من الخلف مع بيبو – لويس ولوكاس وداميان– وبالطبع، تهبط كوكو، الدجاجة. توقف بيبو عن الضحك لكي يقول للصبية أن يغلقوا أبواب السيارة بسرعة:

–ستتسخ السيارة من الداخل...– قال لهم.

–اللعنة عليك يا بيبو – تحدث بنديني خارجًا عن أطواره، لا يهمه التراب ولا الرياح، يريد أن يُظهر ضيقه–. سوف أُدخلك السجن.

–لكن يا بنديني... – بيبو على العكس، لم يكن غاضبًا إطلاقًا، على العكس، كان يبدو هادئًا وقال–... لقد جئت إلى هنا لكي أقدم مساعدتي.

–وكيف تقدم مساعدتك؟ – أراد جونثاجا أن يشارك في النقاش– بالإضافة إلى هذا تأتي بهؤلاء السذج؟!

ظلوا صامتين لبرهة، ينظر كل منهم للآخر. كأنما لا يعرف أي شخص ماذا يجب أن يفعل أو يقول. هذه الصورة الثابتة لمجموعة من الأفراد، ودجاجة، تلفُّهم الرياح والغبار. ينهي بيبو الصمت، بينما ابتسامة الرضا، ابتسامة الجنون، على وجهه:

ــما رأيك في أن نتنفس عميقًا، أن نهدأ؟

الصبية يحيطون به، يعانقونه، يمسكون بيديه. يبدو العم المُفضل الذي يزوره أبناء شقيقه.

ــإما أن ندخل ــ اقترح مُشيرًا لأبواب ((ثيركيتو))ــ، أمْ أنكم تخافون من العاهرات.

بعد ذلك أصدر صرخة، حادة وطويلة. يمكن لأي شخص أن يقول إن مثل هذه الصرخة ستُسمع في الجانب الآخر من القرية.

هز بنديني رأسه رافضًا؛ إذ لم يعد لديه رأي آخر. اقترب من الباب وطرق بقوة. طرق وصرخ في انتظار أن يفتحوا له.

* * *

ــواحد، اثنان، ثلاثة... ــ عدَّ هانك وأطلق لكماته في الهواءــ. لقد رأيت كيف يضرب هذا الضب بيرالتا. لكمة، لكمتان... لكمات كثيرة في الوجه.

هكذا يعرف ريينا ما حدث لسارة، كيف ظهرت على هذه الحال المزرية بجوار قضبان القطار. سمع هانك ونظر إلى الفراش. كان هناك انطباع بأن ميلر قد استسلم. توقَّف عن التأوهات المثيرة للتوتر ــ تلك المتتالية من أصوات الميمــ، ولم يعد جسده ينتفض، كما فعل في لحظات سابقة. وضع هانك الببغاء على صدره وتحرك الطائر بحرية. سار بضع خطوات خجلة، لكن ما إن استعاد الثقة حتى بدأ يتحرك بطول وعرض الجسد الضخم الخالي من الشعر.

كان ريينا وهانك بجوار الفراش، ينظران إلى المشهد بدون الكثير من الفضول.

جاء هانك ليتفاوض مع العاهرات، لكي يحذرهن في الحقيقة، إن لم يجمعن

المزيد من المال، وبشكل خاص، إن لم يقلن ما حدث مع فوشيك وريينوسو، فإن الإمدادات ستنقطع وسيصبح الوضع سيئًا للغاية. هاجمته الفتيات: أطلقن عليه قواد، واش، شاذ، وأشياء أخرى كثيرة. حينئذ قال لهن ميلر إن الأمر لا يُحل بهذا، إن السباب لن يفيد بشيء. واقترح عليهن أن يخترن واحدة تمثلهن وتتحدَّث بالنيابة عنهن جميعًا. ((نتحدَّث ونتفاهم))، قال. ورشحت سارة نفسها.

ــ((لكن سنذهب لنتحدث في مكان آخر)).. ــ يحكي هانك الآن ما اقترحه ميلر ــ، وذهبت سارة الساذجة.

ــولماذا؟ ــ سأل ريينا ــ من أجل ماذا؟

ــ ألا ترى أن هذا يعمل بما يكلفه به هذان الضبَّان الآخران؟ ــ أشار هانك برأسه إلى حيث يُفترض مكان البئر.

لم يندهش ريينا من العثور على الناشطين البيئيين الشهيرين غارقين في تلك البئر. حتى التعبير عن الدهشة كان يصيبه بالإرهاق. لم يلفت انتباهه سوى أنهما كانا قريبين للغاية كل هذا الوقت.

"لا يمكنهما أن يشتكيا))، قال له هانك بينما يكشف له عن مصير فوشيك وريينوسو، ((لا ينقصهما طعام ولا ماء".

كانا في البئر منذ شهور.

ــلكن منذ كم شهرًا؟ــ أراد ريينا أن يعرف.

ــلا أعرف، ربما يكون عامًا.

كانت العاهرات قد ضجرن. الكثير من المعاملة السيئة. القليل من التقدير. بؤس. القائمة طويلة...

ــكنت أشعر بالضيق من هذا ــ قال هانك الآن ــ. الفتيات طيبات، وجاء هذان ليقوما بدور الشريرين، أكثر من المعتاد. وحينئذ تمردت الفتيات.

التمرد الذي يتحدث عنه الألماني الهندي، كان يمكن تفاديه إن كان الناشطان البيئيان أكثر فطنة. لكن من حظ الفتيات، العاهرات ــ لم يعد أي شخص يهتم بـ((ثيركيتو)). لم يعد هناك أي شخص تقريبًا يريد أن يذهب هناك. ريينا يمكنه أن يكون شاهدًا: في الليالي الكثيرة التي أمضاها هناك، لم يرَ زبائن إلا في مرات قليلة للغاية. ((ثيركيتو)) بدءًا من لحظة ما كان يعمل بمفرده، بدون

أشخاص يتولون إدارته. الفتيات كنَّ هناك بدافع الخوف، مجرد التعود.

نظر ريينا لميلر: أدهشه أن يكون قضيب رجل بمثل هذا الحجم صغيرًا هكذا. رغم أن الوجود في هذا الوضع قد يؤدي لانكماش القضيب أكثر من المعتاد، فكَّر ريينا. وربما يكون الخوف أيضًا، أو الإرهاق. أو لوجود الطائر على بطنه، رغم أن وزنه ضئيل للغاية.

ما حدث، كما قلنا من قبل، أن العاهرات ضجرن. عندما طالب فوشيك ورينوسو بمال – بتلك التعبيرات الساذجة، «بوجهين أبلهين»، حسب كلمات إيبانيث– انتهى بهما الأمر في البئر.

–ألقيته هو أولًا – شرح هانك– وبعد ذلك ألقيتها. قاومت، أنشبت أظافرها في وجهي. جاءت بيرالتا من الخلف وكسرت تيرموس ماتيه على رأسها.

ابتسم الألماني الهندي. بدا أنه يتذكر تلك اللحظة، هجوم سارة، التي يشق على ريينا أن يتخيلها. بالكاد يمكنه أن يتخيل تيرموس أزرق – كان تيرموس سارة أزرق اللون، التيرموس الذي كانا يستخدمانه للماتيه– ينكسر على رأس ريينوسو.

–على العكس، لم أفعل شيئًا عندما ضربها هذا – دفع هانك بقدمه جسد ميلر، الذي يبدو أنه يستجيب للمس ويخرج من سباته ويعود للانتفاض والتأوه، وهو ما يؤدي إلى أن يشعر كوتو، الببغاء، بعدم الراحة، ويحاول القفز. قبل أن يحدث هذا، يحمل هانك الببغاء.

في تلك المرة، عندما جاء ميلر للتفاوض، اصطحب سارة في الشاحنة. كانت عازمة على حل الأمور، المطالبة بحد أدنى من الاحترام. لم يكن يحببن العمل الذي يقمن به، ولهذا كان يجب أن يحظين بمعاملة جيدة على الأقل. لكن كانت لدى ميلر فكرة أخرى. كانت سارة قد بدأت في ذِكر قائمة المطالب عندما أوقف الألماني الشاحنة بجانب القضبان وأطلق اللكمة الأولى، مباشرة في فمها. فتحت سارة عينيها الكبيرتين، كأنها مندهشة، كرد فعل أخير. بعد ذلك لم يُتح لها وقت لأي شيء. مع اللكمة الثانية فقدت وعيها. ولم تدر بالضربات ولا الصفعات التي تلت. هانك، الذي اتَّبع مسار الشاحنة على قَدميه، رأى الجزء الأخير من «العلقة» الرهيبة. ولا يوجد شيء آخر تقريبًا يمكن أن

يحكيه لريينا.

–أن يضرب فتاة، ذلك العاهر...– تمتم هانك، بينما ينظر لميلر.

–لكنك ضربت فتاة أيضًا.... رينوسو امرأة– قال ريينا، الذي تبدو فكرته لهانك غبية، وأيضًا مثيرة للأعصاب.

ما يقلق هانك، وهو في الحقيقة ما يُقلق العاهرات، أن الأمر أفلت من أيديهم.

–لتحكُّمي في نفسي – قال– لأنني قواد، قضى هذا الشاذ على بيرالتا. كما لم أجرؤ على إحضارها إلى هنا. كانوا سيتهمونني.

شعر ريينا أن هانك يوشك على البكاء، أنه سينهار في أي لحظة. لكن على العكس، يجلس الألماني الهندي ويطلق ركلة تنطبع في أضلاع ميلر. نظر ريينا إلى صندل هانك: لا بد أن قدمه تؤلمه بعد مثل هذه الركلة.

على أية حال، تضاعف تأوه هانك وانتشر في كل أنحاء الغرفة. كان ضجيجًا لا يُطاق.

–اصمت، أيها الضب الحقير– كرر هانك الركلة.

كانت عينا ميلر توشكان على الانفجار ومفتوحتين للغاية. كانت دموعه تتساقط.

–فلنخرج لبعض الوقت– اقترح ريينا.

كانت العاهرات خارج الغرفة. كن متناثرات في مجموعات من اثنتين أو ثلاث. لا يتحدثن، كن هناك فقط، بعضهن متكآت على الطاولة، أخريات بسيقان منفرجة على المقاعد أو على حشيات صغيرة.

نظر ريينا لهن بشيء من الضيق. لم يكن يرغب في الوجود هناك، كان يخشى أن يلقين به في البئر في أية لحظة.

لكي يفعل شيئًا، جلس إلى إحدى الموائد التي تشكل بار الكباريه. هناك تحديدًا كان يجلس قبل ثلاثة أشهر، ليلة تعرَّف على سارة، تلك الليلة التي بدت له في تلك اللحظة كأنما مرَّ عليها قرن. مرَّ الزمن بسرعة شديدة. لم يستغله.

جلس هانك على مقعد بجانبه وأعطاه زجاجة بيرة.

ـسأحتفظ بالببغاء ـ أخبره ـ وسأعرف كيف أعتني به أفضل منك.

قال له ريينا: نعم، لا توجد مشكلة، لكنه رغم هذا كان ينظر للطائر بشيء من الحزن. على نحوٍ ما شعر بحب تجاه الطائر.

تناول رشفة بيرة وفكَّر في بيته؛ شعر بالكسل عن جمع أشيائه رغم قلتها، والانتقال للإقامة في «لاجونا فريا». لكن، لِمَ سيبقى إن لم تعد سارة موجودة؟ لا يريد أن يُفكر فيها كثيرًا، كان يخشى أن يغلبه البكاء.

ـهذا هو الحال هنا ـ قال له هانك، ولم يضف شيئًا آخر.

في أثناء ذلك فكَّر ريينا في أفضل طريقة لكي يذهب. ماذا يقول؟ أي تعبير يضع على وجهه؟ ولأنه لم يقرر أي شيء، فإن التعبير الذي يضعه على وجهه بينما ينهض كان غريبًا للغاية، تقطيبًا، كأنما وجهه يتقلص، كأنما يتآكل.

قام بتحية الفتيات، بدون أن ينظر لهن. قام بتحية هانك. كلها وجوه رمادية مطفأة. لابد أن وجهه هكذا أيضًا، فكَّر ريينا. كل هذه الشهور هنا؟!

بعد ذلك بدأ يسير نحو المخرج.

خاتمة

فضيحة. أثار رجال الشرطة فضيحة. لكي لا نتحدث عما يثيره بيبو وصبيته الثلاثة والدجاجة. وينتهي هدوء ((ثيركيتو))، هذا الحداد الذي يغشي المكان.

جونثاجا يُمسك بريينا، بينما يلوي ذراعه خلف ظهره.

ــاهدأ، اهدأ... ــ قال له، لكن في الحقيقة، لم يُبْدِ ريينا مقاومة، ترك الشرطي يدفعه، وهذا يقوم بحركات مُبالغ فيها، متبعا إجراء لم يكن هو ذاته يصدقه.

وقف بنديني أمام ريينا، وقال له ألا يقلق، إن هذا لم يكن سوى شيء روتيني، طريقة لتبديد الشكوك. لكن من الصعب أخذ كلمات بنديني على محمل الجد.

بيبو على العكس، كان أكثر نشاطًا، يدخل مصفقًا ويقف صارخًا أمام العاهرات.

ــ أهلًا يا فتيات، كيف حال الأميرات؟ أتيت لكُنَّ ببعض الأصدقاء...

ظهر لويسيتو من خلفه، بينما يجري خلف الدجاجة، التي توترت في وسط الموقف الحرج وأخذت تجري كأنها مجنونة. الفتيات، العاهرات، يتابعن جري لويسيتو بفتور.

ربما شعر بنديني بالتوتر من حجم هانك، الذي لم يتحرَّك، وأسرع لإخراج الطبنجة الميري. قلَّد لايبا تصرفه، وبالمرة، ازداد شعوره أنه رجل شرطة.

ــ لا داعي لكل هذا ــ قالت ميريام صديقة سارة، وشقيقة ممارسي الجنس مع الحيوانات، لوثيو ونيرون. كان مرهقة وحزينة، مثل زميلاتها، لم تعد تحتمل الموقف المتوتر.

ــ ماذا تقولين؟ أسرع لايبا في الردِّ، لكن في الحقيقة كانت ميريام مُحقة. ورجال الشرطة ليسوا بمثل هذه البلاهة، رغم أن ذلك قد لا يبدو واضحًا، لكي لا يدركوا هذا. بمداراة، لكي لا يبدو أنهما يستجيبان لاقتراح ميريام، قام بنديني ولايبا بحفظ طبنجتيهما الميري. فضلوا تولي أمر الصبية، الذين بدءوا في غناء التشكاريرا التي كتبها بيبو بناءً على تعليماته.

– توقفوا يا بلهاء– صرخ بنديني بهم.

جونثاجا هو الوحيد الذي لم يتراجع، لا زال ممسكًا بذراع ريينا.

– وأنت، اترك هذا الساذج– لم تكن لديني بنديني مشكلة في الحديث بشكل سيئ إلى جونثاجا. مع لايبا بالطبع كان سيصبح أكثر حرصًا، لكن هذا الآخر لا يفعل شيئًا.

سيطر ثقل الموقف عليهم. كلهم، بما فيهم بيبو، بما فيهم الدجاجة، كانوا صامتين وساكنين، كأنما لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا. إن كان جونثاجا لا زال ممسكًا برريينا، فلهذا السبب تحديدًا، بسبب هذا الثقل، لأنه لا يعرف كيف يتصرف.

حينئذ يأخذ هانك المبادرة ويدعوهم لتفقد الكباريه.

– تعالوا لأريكم ماذا لدينا في الخلف– قال.

كأنما في قافلة، تقدموا جميعًا خلف الضخم ذي الأصل الألماني. ظلوا مبهوتين أمام منظر ميلر، المُقيد إلى الفراش. هانك، كدليل متحفي، أراهم وحكى لهم. والكل يسمع. لا يتكلم أحد، على أقصى حد توجد غمغمة، تعبير عن الدهشة، أو حتى عن الموافقة. بعد ذلك ذهبوا إلى البهو.

وجد بيبو أنه يجب تحريك الصبية الذين ظلوا أمام ميلر ولديهم رغبة في لمسه.

– هيا بنا – قال لهم–، اتركوا هذا الرجل في حاله.

وفي البهو، كلهم يصبون اللعنات مرة أخرى بسبب الرياح والتراب. غطوا وجوههم بأذرعهم. النهار يغيب، كان الوقت ليلًا تقريبًا، وعندما أزاح هانك غطاء البئر – بذات المهارة والسهولة التي قام بها بهذا أمام ريينا–، لم يسمح الظلام برؤية ما يوجد في الأسفل.

أطلوا جميعا من فوهة البئر، واحدًا تلو الآخر. في البداية رجال الشرطة، لأنهم يتمتعون بالسلطة. حتى الصبية يأخذون دورهم لكي ينظروا. لكن لا يمكن رؤية أو سماع أي شيء.

– يوجد معنا كشَّاف– اقترح لايبا. لكن، من سيبحث الآن عن الكشاف؟ لا أحد.

دخلوا واحدًا تلو الآخر إلى ثيركيتو مرة أخرى.

في غرفة سارة، حيث لا زال ميلر مقيدًا إلى الفراش – وسيظل هكذا إلى حين لا يعرفه أحد–، يتبادل هانك وبنديني الآراء، كل شيء بصوت خفيض. بينما يتحدَّث هانك، يقوم بمداعبة الببغاء. حركته أصبحت ميكانيكية.

البقية ينتظرون في البار. لايبا وجونثاجا يلعبان مع الصبية – يلعبون مبارزة الإبهام أو (حجر– ورقة– مقص)–؛ بيبو وريينا يتناولان بيرة ويتحدثان، عن أي شيء. عن الشعر، عن أغاني تشكاريرا، لم يعد هذا مهمًّا.

حولهم توجد العاهرات، كل واحدة في عالمها.

يشعرون بهدوء أكثر عندما يجدون أن هانك وبنديني حلَّا الأمور التي كانا يتناولانها. انتهز ريينا الفرصة لكي يخرج الكاميرا من حقيبته. لكن الحماس الذي يبديه الجميع إزاء الكاميرا، إزاء احتمالية أن يتم تصويرهم، يتبدد على الفور: الأجواء غير مناسبة للصور. يوجد حزن أكثر من أي شيء آخر.

– انظروا، كيف أصبح الجو رائعًا في الخارج – قال بيبو الذي كان أول من خرج من ((ثيركتو))–، لقد توقفت الرياح.

في الخارج، لكي تروه أنتم أيضًا، الجو ليس رائعًا على الإطلاق. بالفعل توقفت الرياح، لكن بدلًا منها حل ثِقل، جو ثقيل. والحر المعتاد.

لكن بيبو فتى متفائل: لكي لا تهبط المعنويات تمامًا، يبدأ هو والصبية في غناء تشكاريرا. الصبية يحبون هذا، يبدو لهم مسليًا، رغم أن الأمر يتعلق بأغنية حزينة مثل هذه. من خلف ظهورهم، وبعد أن خرج الجميع، يأخذ هانك في إغلاق باب ((ثيركيتو".

يفكِّر ريينا فيما يناسبه: أن يصحبه رجال الشرطة، أم أن يصحبه بيبو؟ اختار بيبو، وهو ما يعني أن ينضم لغناء الآخرين.

قبل أن يركب السي 3، يصل لرؤية إشارة من جونثاجا: الشرطي يلمس ذراعه، فيما يبدو يعتذر عن الإمساك به هكذا قبل قليل. حياه ريينا، بشيء من الاحتقار، وبعد ذلك صعد للعربة.

وفي داخل العربة ينضم للغناء. غناء منطفئ بلا روح. لأنه لا توجد طريقة أخرى لغناء هذه الأشعار. تأملوا: فلنجرب نحن أيضًا، فلنصحبهم في الجزء

النهائي، حتى وإن كان هذا بهمس:
قريتي صمت، يمكن الشعور به أثناء الليل...

بطل الرواية صحفي وشاعر، هجرته زوجته وذهب في مهمة صحفية إلى قرية منسية في الأرجنتين للبحث عن ناشطين اختفيا كأنما ابتلعتهما الأرض.

وخلال فترة إقامته بهذه القرية المنسية يقيم البطل علاقة مع فتاة ليل، ويتخلص من حالة العجز التي كانت تخنقه، ويصبح شاهدا على جريمة قتل.

وعبر صفحات الرواية تتداعى حكايات من التاريخ المعاصر للأرجنتين ومن الحياة اليومية بها: من أزمات منتصف العمر للبطل الذي يعبر الثلاثين بقلق ومن تعثره المهني، كل ذلك وسط أحداث مثيرة أهلت الرواية لتفوز بجائزة "الأدب البوليسي" في الأرجنتين عام 2013.

ماريانو كيروس

كاتب أرجنتيني شاب. له كتابين بجانب هذه الرواية، هما "مقطوعات أدبية- خريف 2013" ورواية "الكثير من الركض"، الفائزة بجائزة فرانثيسكو كاسابيا الإسبانية في عام 2013.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

Cover design by Alaa [illegible]